نور عبد المجيد

سيادة القاضي



رواية واقعية

الدار المصرية اللبنانية

إهــداء

إلى حبيبي الصامت كثيرًا والساخر دومًا..

أسْتظِل بظلِّ حبك الذي لم يبقَ لي ظل سواه!!

إلى «كريم»..

بعض الكلمات يحيي وبعضها الآخر يميت..

بعض الكلمات يفضح وبعضها سِترٌ وسَاتِر..

بعض الكلمات ينير البصيرة وبعضها غمام وضلال..

كل الكلمات دروس وخبرات.. مصابيحُ دروب وقناديل طرقات..

كلمات الشاعر نشوة.. كلمات الراوي شهقة.. وكلمات الحقيقة صحوة..

إلا كلمة «العدل» وحدها نارٌ وسعير!!

كيف تقبلون حملها على أكتافكم؟! وكيف بها أمام الله يومًا تقفون؟!

يا سيادة القاضي:

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «القضاة ثلاثة: اثنان في النار وواحد في الجنة»..

اقرأ هذه الرسالة علك بقراءتها تنجو وتكون ثالثهم..

اقرأ علك تنقذ روحًا بريئة يغفر لك بها الله.. روحًا بقلمك كَتَبتَ قرار إعدامها..

اكتب.. اكتب بالقلم!!

القلم.. وآه من القلم!!

كل الأقلام إن كتبت يمكننا أن نمحو حروفها إلا قلمك وحده إن كتب قَلَب أقدارًا ورسم مصائرا!

هأنا في بذلتي الحمراء أنتظر تنفيذ حكم الإعدام الذي خطه قلمك..

سعيدٌ أنا بهذا اللون الذي أرتديه..

الأحمر لون الحب الذي عشت به..

الأحمر لون الدم الذي أراقه قلمك..

لون الجنون.. لون الخطر.. لون وجنات العذارى وضحايا الحروب ومشانيق الظلم..

أشهد الله أنك حكمتَ عدلًا..

يوم يضعونني على حبل المشنقة ويسألونني عن آخر أمنياتي سأمنحهم هذه الأوراق ليرسلوها إليك..

أنا رجائي صابر..

وكل رجائي أن تقرأ..

يقولون إن القضاة يقرءون..

يقرءون كتبًا ومراجع، تحقيقات وأوراقًا..

هل تجرب نوعًا جديدًا من القراءة؟!

أمنحك الحقيقة كاملة عارية فهل تقرأ؟!

أم أن الحقيقة كالعدل أهلها دون جميع خلق الله ماتوا؟!

***

كان بيتنا ككل البيوت المصرية أو العربية مقسمًا إلى جزءين..

كان مقسمًا!!

كل آفتنا ماضينا المجيد الذي متنا بعده، وتقسيمنا لأراضينا وألواننا وثرواتنا!!

نعم كان مقسمًا إلى جزءين!!

جزء دومًا نظيف مرتب فيه أغلى أمتعتنا وجُلُّ نقودنا..

جزءٌ الجلوس فيه حرام وتنظيفه دومًا واجب..

جزءٌ خاوٍ ينتظر زائرًا غريبًا أو ضيفًا عابرًا، حين يدخل يجب أن يجده أبهى مما يظن..

والجزء الداخلي مبعثر مهلهل نحشر أجسادنا فيه، أحدنا إلى جوار الآخر لنترك واجهة البيت خاوية لامعة..

آفتنا التقسيم..

نهتم بوجوهنا وثيابنا وأحذيتنا..

نحلق الرءوس ونجمل الوجوه ونصبغ الشفاه..

فهذا ما يراه الآخرون!!

وتبقى دواخلنا لا نهتم بها..

لا نُغذي عقلًا ولا نُشبع روحًا، بل حتى أعضائنا التي خلف ثيابنا لا نهتم بها، فلا أحد سوانا يراها!!

حمقى حين جعلنا الآخرين بأجمل مواضع بيوتنا يستأثرون، وبأجمل ملامحنا يُقابلون.. ونحتفظ لأنفسنا دومًا بالأقل..

الأقل جمالًا والأقل طهارة ونظافة..

ماذا من بيوت كهذه تنتظر؟! وماذا من سكان مثلنا تتوقع؟!

أكاد الآن أسمع جيراننا وأصدقاءنا حتى الغرباء يسألون في دهشة كيف أصاب كل هذا الدمار ذاك البيت الأنيق؟!

لم يدخل أحدهم إلى الجزء الخلفي..

بل لم نتنبه نحن يومًا إلى سُوسٍ أسود كان ينخر في صمت حتى أفقنا على الفاجعة!!

كان بيتنا وكان يومًا لنا وحدنا..

أصبح في لحظة مشاعًا بعد أن لوثته الدماء وعاثته أحذية رجال الشرطة ودم الضحايا، وإن لم يسقطوا على بلاطه..

ورغم هذا أظنني ما زلت أرى جزءه الأمامي في أحسن حال..

كم بيتٍ على أرضنا تتآكل جدرانه وتتخلع بلاطاته ونغمض أعيننا، ما زال الجزء الذي يراه الآخرون ثابتًا وفي سلام!!

***

أما قال ربك جلّ في علاه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾؟

طال تفذلكي وطالت فلسفتي الجوفاء..

اعذرني.. اعذر سجينًا ينتظر الموت..

لم نكن نسكن حارة من الحارات الضيقة، بل كان بيتنا في الشارع المطل على المسجد الكبير..

نشأت على صوت الصلاة وجموع المصلين والزائرين..

كبرت على وجوه الباكين والمستغفرين.. زوار المولد الكبير..

في لحظة يرددون «مدد»، وفي اللحظة الأخرى تشتعل مشاجراتهم وتخرج منهم جموع؛ متسولون ولصوص، حتى أنك لا تعلم أيهم الخاشع وأيهم الفاسق.. أم أن جميعهم بكلا الوجهين يعيشون..

شقة صغيرة في الدور الثاني من المبنى القديم.. البيت كله ملك لنا..

باب خشبي قديم نصفه زجاج خلف أسياخ سوداء من الحديد..

للبيت بطوابقه الأربعة رائحة مختلفة.

رائحة يمتزج فيها بخور المسجد وزواره وأطعمة المحلات الشهيرة حوله..

رائحة نقاء وخبث.. طهر وفساد..

رائحة الإنسان!!

حين تدخل إلى بيتنا يستقبلك الجزء الأمامي..

طاولة طعام مستطيلة حولها ثمانية مقاعد، خلفها «نيش» أمي الذي ما فتحناه سوى مرتين..

باب آخر كبير نصفه زجاجي، حين تفتحه تجد مقاعد غرفة الضيوف.. مقاعد مذهبة ربما ما أثقلتها أجساد الزوار إلا مرات قليلة..

حرام علينا أن نفتح الباب.. كنت وفاطمة أختي الكبرى نرقص فرحًا إن جاءنا زوار؛ لأننا معهم ندخل المنطقة المحرمة..

هل تصدق أيها القاضي أن أختي حين تمت خطبتها كانت سعادتي بفتح هذا الباب وجلوسي على مقاعده ربما أكبر من سعادتي بالحدث نفسه؟!

في الجزء الخلفي هناك غرفتان..

غرفة أمي وأبي وغرفتي أنا وفاطمة.. شقيقتي وحبيبتي، شريكة نومي ويقظتي..

يوم تزوجت.. يوم خرجت إلى بيت زوجها.. كان يومًا غائمًا لم نعرف فيه أن نضحك أو نفرح كما ظننا أنا وأبي!!

«سيدة» أمي..

طاهية رائعة وأم حاسمة.. سيدة جميلة لكنها لا تبتسم!!

تلك هي أمي!! امرأة قوية.. كلماتها قليلة، لكن إن قالت ما قال لها أحد شيئًا سوى «السمع والطاعة»..

تشبه فيروز كثيرًا، وأشد ما تشبهها فيه بخلها في أجمل وأبهى ما

منحها الله..

بخلها في الابتسام!!

دومًا نظيفة.. دومًا تهتم بكل التفاصيل وأدق التفاصيل..

اعتدت كثيرًا أن أعود من مدرستي لأجدها قد انتهت من كل أعمال المنزل واغتسلت لتجلس على سجادة صلاتها تدعو في تضرع وسكون..

كثيرًا ما كنت أراها ترفع يديها إلى السماء وتنهمر دموعها في سخاء وصمت..

كنت في بداية الأمر أهرب قبل أن ترى أني رأيت دمعها، لكن كلما اشتد عودي وكبرت كنت أقف خلف بابها لتستدير نحوي وتمسح دموعها في هدوء وتسألني: ماذا أريد؟!

لم أسألها يومًا عن سر بكائها..

كان يكفيني أن كل شيء منظم هادئ ومعدّ..

حتى أنا لم أفهم ولم أعِ أن أمي بداخلها غرف خلفية أولى بالدخول إليها وسؤالها عنها..

ربما لو سألتها يومًا عن سر ذاك البكاء الصامت ما حرمتنا من بهاء وجهها حين تبتسم تلك الابتسامة الفيروزية الساحرة..

اعتاد أبي أن يقول إنه الفراغ، وأحيانًا شجن، وحين يكون عنها راضيًا يقول إنه خشوع..

فكرنا واستنبطنا وأطلقنا آراء واستنتاجات، ونسينا أن هناك دربًا أقصر وأصدق اسمه السؤال والمصارحة!!

***

يقول أبو بكر الشبلي:

جُننا على ليلى وجُنَّت بغيرنا

وأخرى بنا مجنونة لا نريدها!!

تلك قصتي مع أبي.. هائم هو بحب ابنته وأنا بحبه أهيم حتى اللحظة، وفاطمته بسواه مجنونة..

منذ أدركت للكلمات معناها وللنظرات والأصوات تفاسيرها، علمت أن أختي هواه الأكبر..

كَبرتُ على حبها واحترامها، حتى أني في طفولتي تلك لو عرفت كيف أترجم مشاعري لأشرت إليها ظنًا مني أنها أمي..

دموع صابر تنهمر إن رآها يومًا مريضة.. وترقص على أحبال صوته العصافير إن ضحكت أو أسرعت نحوه تعانقه..

لا تسألني لماذا كان يحبها بذاك الجنون، فأنا لا أعلم، لكن لم أشعر يومًا بالغيرة..

نغار فقط ممن يأتي بعدنا، وليس أبدًا من شخص أتينا فوجدناه..

يقول أبي دومًا إن فاطمة حين ولدت كانت تصرخ ككل الأطفال، وإن القابلة خرجت بها إليه، وحين حملها على ذراعيه هدأت

وابتسمت..

يقسم، وحاشاه ما كذب ولا أقسم يومًا كذبًا..

يقسم إنها ضمت شفتيها وأرسلت له قبلة وهي تبتسم..

دومًا ينظر إليها وتدمع عيناه في كل مرة يحكي القصة، ويقول إنها بزمة شفتيها الصغيرتين تلك سحبت من الضلوع قلبه، ليصبح بين أصابعها، وهدأت ثم نامت!!

نصدقه.. نعم نصدقه، ولكن كيف غاب عنا أنه أصبح رجلًا قلبه بين أصابع رضيعة، وعقله يصدق أنها ضحكت، وأنها قَبّلَت، وأنها اشترت ومَلكت؟!

***

يعود صابر العطار عودتين كل يوم..

يعود الأسمرَ الضاحك كل عصر في الرابعة، بعد أن يترك صبيه في دكان العطارة الصغير المسجل كالبيت باسم أمي، لكن وحده يدير كليهما..

خفيف الظل.. حاضر النكتة.. يعود بعد عودتنا من المدرسة أنا وفاطمة، بعد أن نغتسل ونتناول طعامنا، وقبل أن نبدأ رحلة الفروض المدرسية البغيضة..

لم يفتح باب البيت يومًا في إحدى عودتيه إلا وارتفع صوته يناديها..

عشت أعوام طفولتي أحلم لو كان نداؤه مرةً لي، حين كبرت وأصبحت في المرحلة الثانوية تمنيت لو أنه يومًا نادى أمي..

دومًا في صوته لهفة مهاجر، وفي عينيه شوق عاشق، حين يصيح عاليًا «فطومة»..

تركض فطومة إليه فهي تعلم ما جاء به..

قطعة كبيرة من العسلية تلتقطها بعد سقوطها بين ذراعيه في عناق كأنها غابت عنه دهرًا لا ساعات..

لي قطعة عسلية يومية أيضًا، لكن ما شعرت يومًا بحلاوتها بعد غصة حرماني من النداء..

يدخل صابر ويمازحني ساخرًا من أي شيء وكل شيء.. صاخبًا يسأل عن وجبة الغداء أو العشاء، حين تنظر سيدة إليه كثيرًا ما يرخي عينيه أو يشيح بوجهه، ليس كرهًا أو مللًا، فليس فيها والله ما يُكره أو يُمل، لكنه خوف وانكسارة عين لم نفهمها في طفولتنا تلك..

يجلس العطار على المائدة، وتجلس سيدة وأبناؤها، نستمع إلى قصصه اليومية عن زبائن العطارة.. عن بضاعته الجديدة والقديمة.. عن أعشابه وتوابله.. عن صبي الدكان الذي سرق.. عن العميل الباكي الذي جاء يتسوق منه الأمل في عشبة تشفيه، أو عشبة تعيد إليه ما ضاع من شبابه أو فحولته..

أمي تستمع ودومًا تخبره ماذا عليه أن يفعل..

حديثه لا يُمل كأنه كوب شاي أصيل نرتشفه مع حلوى العسلية..

حين ينتهي من طعامه.. حين يقف مشمرًا أكمام جلبابه متجهًا للوضوء، نقف جميعنا ونصطف لنؤدي خلفه صلاة الجماعة التي يدخل إلى غرفته بعدها ويغفو ظهرًا، ونعود إلى غرفتنا الخلفية..

نؤدي فروضنا، أو ننام جميعًا إن كان ليلًا، وتبقى سيدة وحدها تلملم آثار فوضانا وبقايا صحوننا وأيامنا..

أبي الذي لم ينادني يومًا، ولم أفهم جنونه بأختي، تعلمت منه أن أكون بها وبأمي أكثر ولعًا وجنونًا..

العطار الذي يلتف حوله سكان الدرب الأحمر في حب، كان رجل بيتنا ومشعل ليالينا..

كنت أستلقي على فراشي وفاطمة في فراشها المجاور، وأسألها هل فينا من يصبح يومًا مثله بهذا الحنان وهذا الحضور؟ ودومًا تخبرني أن أباها من عطارته تصطبغ روحه بالتفرد والبهاء..

ليس من العطارة بل هبة من السماء..

أباكِ يا فاطمة ليس عطارًا بل ساحرًا من سحرة التاريخ، عدا أنه سقط سهوًا من صفحاته ليصبح أبانا وعطار الدرب الأحمر!!

***

هل يتكئ صبي يومًا ويتخيل كيف يكون الآتي؟!

وهل يراه إلا ورديًا بحماقة صباه؟!

وهل يتكئ عجوز ويتذكر حماقة أحلام صباه؟!

هل يتخيله دون دمعة وشهقة حسرة المدرك المبصر بعد طول عمر وعمق وهم؟!

لا أظن الأول لغروره وجهله بأرجوحة الحياة يفعل، ولا الثاني لخجله وإجهاده يفعلها!!

كل الصبا جهل وغرور.. كل الصبا بمن وصلوا إلى نهاية الرحلة يهزءون، وكل من هم مثلي لو كشفوا عن جراحهم الغائرة وخبراتهم أيها القاضي مُكذبون مُكذبون!!

ترى كم عمرك؟

إن كنت تبتسم هازئًا لا ألومك، بل أبشر.. أنت من الصبية الجهلة!!

فلتهنأ سيدي بجهلك واستمتع به، فعمره كعمر كل البشر قصير وإن طال..

وإن تنهدت وأرخيت رأسك في ألم، فمرحبًا بك على قوارب الرحيل، ولتقرأ قصتي علك تُعْلمهم وتتعلم!!

***

كمياه الأنهار الكبيرة كانت حياتنا كما أذكرها..

هادئة لا موج فيها ولا تقلبات..

سيدة تطهو وترتق الجوارب المثقوبة، وتصلي وأحيانًا تبكي..

نحن نلعب ونلهو ولا نسأل يومًا كيف أتى الطعام، وعلى أي نار تم طهيه، ولا سألنا مرة أو اهتممنا من أين أتت الثقوب في الجوارب

والأرواح، ما زالت أقدامنا تخبئها الأحذية، وقلوبنا الجريحة بين الأضلع تتوارى..

فاطمة جميلة تحصد النظرات في حي الدرب الأحمر، وتحصد الدرجات في مدرسة «مصطفى كامل» في درب الأغوات حيث تلقينا تعليمنا الابتدائي..

أذكر أني اعتدت أن أسمع بعض معلمي المدرسة يخبر أحدهم الآخر أني شقيق فاطمة العطار كأني منها أستمد هويتي وكينونتي!!

الآن أتساءل كيف لم تصبني منها الغيرة لحظة واحدة؟!

في البيت فطومة والدها، وفي المدرسة الأولى والمثالية دومًا..

ربما لأن أبي لم يقارني يومًا بها، وربما لأن أمي ما كانت تفضل أحدًا منا على الآخر..

لا أعلم.. ما أعلمه أن فطوم ذاتها يومًا لم تغتر بحب الأب في البيت، ولا تصفيق المعلمين في المدرسة..

كنت فخورًا بها وبجمال طلعتها.. مسحورًا بكل ما تستحوذ عليه من اهتمام، حتى ظننتني أستمد من نجاحها نجاحي، ومن بهائها نور دروبي..

اختلف كل شيء حين انتقلنا إلى المرحلة الثانوية.. تعثرث قليلًا في دراستي، لكن لم أرسب يومًا في سنة دراسية..

كانت دومًا تساعدني، وتستذكر لي دروسي، وفي بعض الأحيان تؤدي عني فروضي..

بيت طيب هادئ، عائلة صغيرة لا صوت لها، رغم وجودها وسط حي شعبي يعلو فيه السباب كثيرًا، وتكثر فيه مشاجرات الأزواج واعتداءات الأبناء..

بيت كبحيرات النيل..

لا موج فيها ولا تقلبات، لكن في لحظة تخرج تماسيحها وتقلب هدوءها ضجة، وتتحول انعكاسات الفضة فيها إلى دماء وبقايا!!

***

النساء أغوارهن سحيقة أيها القاضي، لكن لجهلنا وغرورنا نظن أن ليس جميعهن..

إن أردن إفشاء سر علمت به الدنيا، وإن أردن كتمان قصة دُفنت في صدورهن حتى القبور، وفي كلتا الحالتين لا يظهر عليهن شارة ولا تشي بهن ملامح..

لو أني فقط من أمي وأختي تعلمت..

لو أني فقط صدقت أن كل النساء من رحم أم واحدة ولدن، لم أكتب لك رسالة، ولا بجرة قلم كتبت أنت قرار إعدامي!!

كان القمر بدرًا في سماء تلك الليلة، ومن على فراشي كنت أرقب وجهه، وأفسر رسوماته حتى سقط الجفن فوق الجفن، وغبت بين ذراعي سلطان النوم..

شعرت بيدها الرقيقة تهزني، فتحت عيني لأبصر عينيها

الواسعتين، بلوعة لهفتي قفزت جالسًا أهمس:

ـ ما بكِ يا فاطمة؟ هل أنتِ بخير؟!

كانت اختبارات الثانوية العامة بعد أيام، وقد أنهت اختبارات عامها الجامعي الثالث كعادتها بتفوق..

ماذا يبكيها؟ ولماذا توقظني في عتمة الليل؟

انعكس ضوء القمر على وجنتيها كأنه يتلقى منهما في الرقة والجمال درسًا..

كانت ترتدي قميصًا من القطن الأبيض، ورأيتها تكور كفًّا داخل كف، وفي اللحظة التي غادرت فيها الدمعة مآقيها قالت:

ـ متعبة.. لا أحد في هذا البيت يهتم لما يدور في صدر الآخر..

مسحت عينيّ وقلت:

ـ أنا أهتم.. ما بكِ؟

نظرت إلى وجهي وتنهدت كأن ليس خيار آخر أمامها، بعد صمت قالت:

ـ رجائي.. أنا عاشقة!!

***

لو أن كلًّا منا على وجه الأرض عرف دوره والتزم به..

لو أن بعضًا منا ما تطوع للقيام بأدوار لم يُخلق لها؛ ظنًّا منه أنها

شجاعة أو بطولة أو حتى استسلام..

لو فعلنا لاستقامت الأمور، ولكن كيف لها سيدي أن تستقيم؟ وكيف إن حدث تصبح دار عناء واختبار؟!

لو أن أمي كانت أكثر اقترابًا ما أضاعتني فاطمة، ولا تهت أنا في خطوط عالمها واستقيت منها كل خبراتي..

«لو» أني و«لو» أنه و«لو» أنها..

لو أننا جميعًا ننسى هذا الحرف ما سقطنا.. ما بكينا وما ندمنا!!

«لو» حرف حسرة.. أداة ندم..

لا الحسرة تفيد ولا الندم من جوع يسمن!!

أردت أن أكون لها في تلك اللحظة في لهفة أبي عليها، أردت أن أكون صدر أم وذراعيْ شقيق..

ما خلق الله أبدًا إنسانًا يستطيع القيام بجميع الأدوار معًا!!

أخذتني إلى عالم ساحر اسمه «الحب»..

حدثتني عن «فؤاد» حتى أصبحت مثلها له عاشقًا..

في كل ليلة وتحت تلك الشرفة وأمام وجه القمر، تحكي لي قصصًا عن كل ما يدور بينهما..

أحيانًا يغضب الرجل بداخلي حين تعلمه أن فؤادها أمسك بكفها، أووضع على شفتيها قبلة..

أحيانًا يثور صابر العطار بداخلي لأجد هدوء سيدة يطلّ ويمسح عني وعنهم نسائم الغضب..

«فؤاد المالكي» خريج هندسة القاهرة للميكانيكا..

الشاب القمحي الهادئ الوسيم بقي حديث ليالينا شهورًا..

صحن كبير من السندوتشات تصنعه فاطمة وكوبان من الشاي باللبن؛ لنجلس معهم على فراشي أسفل النافذة، يأتي قمر ويغيب آخر والحديث عنه لا ينتهي..

له أخ أكبر مقيم خارج البلاد، وله أخت صغيرة في العام الأول من كلية آداب..

سينهي سنة التجنيد خلال شهور وبعدها..

«بعدها يا رجائي يحضر لخطبتي»!!

أرتشف من كوب الشاي وأبتسم، ثم أتخيل باب غرفة الضيوف يفتح ومصابيحه تضاء، وتجلس فاطمة في صدارته، وتحمل أمي أكواب الشربات، وأتمايل أنا وأبي فرحًا وطربًا بخطبتها..

شهور نتسامر حتى أن أمي أصبحت في ليالٍ كثيرة تفتح باب غرفتنا عنوة لتنظر في وجوهنا، كأنها تبحث عن شيء لا نعرفه..

ظنناها أنا وفاطمة تبحث عن تفسير لسهراتنا وأحادثينا، لكن يومًا علمت النبأ..

أنا أيضًا شاب وسيم أو هكذا كنت أهتم بمظهري.. بشعري الأسود

الناعم، بملابسي بل حتى حذائي..

السعادة تمنحك قوة.. تمنحك طاقة.. قصة حبهما كانت سعادة كبيرة..

أنجزت اختبارات الثانوية العامة بكل دروسها ومجاميعها في نشاط وحب كبير.. وما سوى الحب والنشاط يطير بساقيك ويفتح شرايين رأسك وأوردة قلبك، إن كنت موعودًا بهدية أو مكافأة!!

لا تصدق أبدًا أن الأطفال وحدهم يحبون الهدايا ويلتزمون بالقوانين إن كان في انتظارهم وعد أو هدية!!

الكبار أكثر منهم طفولة، فقط إن وثقوا في الواهب وصدقوه!!

ثقتي في صدق فاطمتنا كانت كبيرة وبلا حدود!!

كنتُ فخورًا بنفسي حين أنهيت الاختبارات، أدلل أمي إن وجدتها في المطبخ، وأجذبها من ذراعها لأمنحها ضمة أو ألقي عليها دعابة وأصيح:

«رجاؤك يا أمي في الجامعة بعد شهور»..

أيضًا وعدت والدي بالذهاب إلى دكانه كل يوم في الفترة الصباحية، ووعدني بمرتب شهري مغرٍ إن أكملت العمل معه بعد دخولي إلى الجامعة..

الحياة بأكملها مجموعة من الوعود، وسعادتك فيها وبما يتحقق منها، وبمن يحرص عليها!!

حين رميت رأسي على الوسادة وأغمضت عيني بعد شهور المعاناة، استسلمت يومها لنوم عميق لا انتظار فيه لدرس، ولا أرق من موعد استذكار أو تحصيل..

تململت في نومي وأنا أشعر بها تبدل ملابسها، أبقيت عيني مغمضة لتخلع وترتدي ما شاءت خلف باب خزانة ثيابها..

غرفتها كما هي غرفتي، وهذا أيضًا ما تفعله دومًا إن بدلت ثيابي أو ارتديتها..

ما زال النوم يداعب جفوني، لكن في صبر انتظرت انتهاءها ومغادرتها الغرفة لأكمل ما افتقدته من نوم، بلا شعور بالذنب أو التقصير..

حين هبت نسائم عطرها تنهدت وأنا أسفل الوسادة؛ لعلمي أنها الخطوة الأخيرة، لكن لم تخرج فاطمة من الغرفة..

شعرت بكفها تهزني في حنان وحزم قائلة:

ـ رجائي.. استيقظ.. لدينا موعد..

لم أكن نائمًا وأظنها كانت تعلم، من يتشاركون غرفة واحدة دومًا أحدهم بالآخر عليم!!

فتحت عيني في تثاقل وقبل أن أسأل أو أعترض، فاجأني وجهها الجميل وشعرها الأسود الناعم.. في أبهى صورة، وابتسمت تكمل:

ـ الوعد! هل تذكره؟!

جذبتني من ذراعي تصيح:

ـ فؤاد ينتظرنا.. ألم أعدك أن تراه إن أنهيت امتحاناتك وأجدت أداءك؟!

قفز الشاب ذو التسعة عشر عامًا في خفة..

سألتقي فؤاد ونخرج لتناول العشاء في مكان أنيق راقٍ..

جميعنا أطفال سذج نمنح ونُفرغ كل ما في جيوبنا، فقط لتحقيق الوعود وحصد الهدايا!!

***

لم تحاول فاطمة كثيرًا، فدومًا كلمة واحدة منها تكفي..

في دلال أخبرت أبانا أننا سنخرج معًا للاحتفال بي وأنها تريد سيارته..

كل العشاق يجيدون الكذب ويتقنونه، وكيف لا والعشق ذاته أكبر أكذوبة صنعها الإنسان وأتقن صنعها حتى صدقها؟!

العطار لا يرد لها طلبًا، بل لا يتركها تعيد ما تقول مرتين..

تركتني أقود سيارته «البيجو» الحديثة في ابتسامة ساحرة، كأنها تفتح بداخلي بوابة السعادة..

حين وقفت بسيارة أبينا أمام فندق «الفورسيزونز» بجوار حديقة الحيوان وهبطنا معًا، شعرت أن فاطمة تأخذني إلى عالم جديد كنت أظنه عالم حب وسحر، لكن متى كانت العبرة بالبدايات؟!

في الدور الأول من مول الفندق وفي مقهاه الواسع وقف فؤاد يرحب بنا..

وسيم كما تخيلت، بل ربما أكثر من صور رأسي جميعها، هادئ واثق كأنه يعلم أنه امتلك أختي بكل ما فيها..

ليس فاحش الثراء لكنه من عائلة طيبة راقية، أمه وأبوه مهندسان في إحدى شركات رجل الأعمال الشهير.. ورغم سكنهم في منطقة المهندسين ورغم تعليمهم الفرنسي، فهي عائلة محافظة، نصيبها من التدين لا يقل عن نصيبنا منه..

كل شيء كان ساحرًا، مضى اللقاء بنعومة شديدة.. كأننا ثلاثة أصدقاء مضى على صداقتهم عمر طويل..

كل شيء فيه يضيف إلى رصيد المحبة والاحترام بداخلي نقاطًا كثيرة..

لا شيء قلقت منه.. لا شيء أبدًا لم يشجعني على منحه الحب والثقة..

لا شيء سوى شيء واحد..

فاطمة تحبه وتخافه..

نعم تخافه!!

هذه النظرة التي تلاحقه بها في كل التفاتة تيقنًا من رضاه عني وعنها..

هذا الصمت الذي يسكن أطرافها إن تحدث أو سكت..

هذه الرعشة في ملامحها حتى أنك تشعر بها تكاد تطلب موافقته على كوب العصير الذي طلبته، كل هذا قال الكثير..

مم تخافه؟! ولمَ؟!

لأنه حازم هادئ قليل الكلمات؟!

كيف تقبل المدللة أن تكون تابعًا وهي سيدة مشاعر أبيها؟!

بقيت لحظات أتأملها في نقاش دار بينهما حول طبيعة العمل الذي يجب أن تبحث عنه..

في بيتنا تصيح وتقاطع وتعترض ونسكت جميعًا لنتحدث..

هنا مع هذا الشاب الوسيم هو يقول وهي دومًا وفي حب ترخي عينيها وتغمضها كأنها تقول «آمين»..

ظننت رجلها يكون مثل أبي..

عاشق كبير، خفيف الظل، ترسم له بذكائها الذي نعرفه كل تفاصيل أيامه..

لكن من قال إننا نبحث عن أشباه آبائنا وأمهاتنا فقد أخطأ كثيرًا..

أحيانًا لا نبحث إلا عن نقائضهم تمامًا..

سألني لماذا صمت فجأة؟

سألني باهتمام حقيقي ومحبة لا تَخْفى وأجبته بنفس القدر من

الصدق قائلًا:

ـ فاطمة معك أخرى، غير تلك التي معنا!

ارتبكت أختي وارتعشت كأنها خافت أن تُغضب كلماتي فؤادها، لكنه في ابتسامة مريحة واثقة أجاب:

ـ رغم علمي أنها جميلة في كل الأحوال، أثق أنها هنا أجمل..

الرجل على حق!!

حين نخلع رداءنا.. حين نَهب أنفسنا ونتخلى عن قوتنا وسلطاننا، ويصبح كل ما فينا يصلي إلى ربه خاشعًا، فقط لنبقى أو نكون مع شخص، فما عساه هذا يكون سوى الجمال بعينه؟!

رجل أختي رائع، ولهذا ضاعت وذابت في خطوط كفيه!!

***

يتلون الأشرار.. يبدلون كلماتهم ومواقفهم وحتى صلاتهم ودعائهم، لكن حتى الأخيار يتلونون!!

تلك الناعمة الهائمة عادت حين دخلنا إلى البيت كما كانت في الصباح..

تتدلل على أبيها، تطلب من أمها كوب الشاي في ثقة، وتجلس كما اعتادت بين ذراعيْ والدها، تسأل عن الأخبار والأعشاب والزبائن، وتملي عليه النصائح في الإدارة والاتجار..

بَقيث تلك الليلة صامتًا أرقبها على مائدة العشاء في سكون..

لم أُكذب أبدًا صدقها في بيتنا، ولا ارتبت أيضًا في إخلاص تلك القطة الصغيرة التي كانت مع فؤاد..

يا سيادة القاضي:

بداخل كل إنسان قط وديع وأسد مفترس، ليس له عليهما سلطان..

فقط قلبك وشعورك بمن أمامك يُخرج أحدهما ويمنحه دور البطولة!!

الحياة بأكملها وجوه ووعود وأدوار!!

***

خرجت إلى العمل مع والدي، وعرفت أنه يلعب دور الأسد في دكانه الصغير..

زبائنه كُثر، جميعهم يحبونه ويثقون فيه، بل هناك من يتعامل معه كأنه الطبيب..

لا تمر ساعة دون دخول سيدة تسأل عن عشب يجعل شعرها ينمو ويزداد كثافة، ولا يمضي يوم دون أن يأتينا رجل يطلب عشبة تزيده فحولة..

تعلمت كل الأسماء وكل الأسعار..

تعلمت أن البيع لا يتم بسؤال وجواب، لكن يتم دومًا إن صاحب العملية اهتمام ودعابة، ذِكر اسم تَعافى على ما يصفه أبي، أو استشهاد بحديث أو حتى حلقة تليفزيونية..

«التجارة شطارة».. هذا ما كان يخبره لنا حين نجلس حوله نستمع إلى أحاديثه كل ليلة، لكن في محل العطارة وبين زبائنها عرفت المعنى الحقيقي للكلمة..

صابر العطار ليس بائعًا فحسب..

هو بائع وطبيب، حاوٍ وقاصّ، وفي بعض الأحيان ممثل كبير..

ليس في الأمر ضرار أو صراع، لا يقدم إلا ما يؤمن به وما يثق في جودته..

لكن متى كان –سيدي- ما نؤمن به ونثق فيه وحده الحق والصواب؟!

***

فُتح الجزء الأمامي من بيتنا بعد شهور..

ثلاثة أيام وخادمتان تحضران لتنظيف غرفتين لم تفتحا منذ أعوام، وربما خشي دخولهما حتى الغبار نفسه والأتربة..

تحدد موعد حضور فؤاد وعائلته لخطبة فاطمتنا الجميلة..

جهد كبير قامت به سيدة، ودفع فيه العطار دون تردد كل ما تطلبه نظير شراء لوازم الاستقبال وطعام العشاء..

فاطمة تُشرف على إعداد الجزء الأمامي، وأنا سعيد لسعادتها، وسعيد لحضور صديقي فؤاد..

كان أبي أيضًا سعيدًا، لكن في بعض الأحيان ولدقائق قليلة، أراه

يغلق عينيه في ألم كلما فشلت فاطمة في السيطرة على إظهار فرحتها الكبيرة، أو قلقها الأكبر من أن يكون هناك شيء يسقط منها، أو ألا يكون كما يليق بعائلة المهندسين، والقادمين أيضًا من مدينتها إلى الدرب الأحمر..

أمي كانت أكثرنا سعادة وأقل أفراد العائلة توترًا..

تثق في أن من يقع في حب ابنتها لا يهتم بنقصان إن حدث أو كان..

انتقت العروس لنا جميعًا ما نرتديه، وأملت على أمها قائمة طعام العشاء، ولقنت والدها في ذكاء شديد ما يقول، وما يجب الامتناع عن ذكره في اللقاء..

كنت معها حين اشترت ثوب اللقاء الكبير..

ثوب أبيض من الشيفون يقف أسفل ركبتها، وعليه تطريز خفيف من اللون الوردي على صدره وطرفي الأكمام.. اختارت لأمها ثوبا مقاربًا لثوبها، لكنه في لون باذنجانة خانها السواد..

اختارت لوالدي قميصًا في لون العاج الإفريقي وبنطلون أسود..

ضَحكتْ يومها حين فتحت خزانة ملابسي لتختار ما أرتديه، أخبرتها أني سأختار وحدي، لكنها استدارت نحوي تقول في حزم ممزوج برجاء:

ـ أختار أنا لك.. هو يومي ولي الحق أن أختار جميع تفاصيله.. هل تنكر حقي في ذلك؟!

ليس الأمر نكران الحقوق.. الأمر كله حين تختلط الرؤى وتتداخل الحقوق والأدوار!!

أسلمنا لها حقوقنا وأصبح كل ما يشغلنا هو الليلة التي يأتينا فيها الزوار..

الليلة الكبيرة رغم أننا في عين فاطمتنا جميعًا كنا صغارًا!!

***

متى تعلم أن قيمة ما منحك الله من نعم يتضاءل في عينيك؟!

حين تبدأ في مقارنة ما لديك بما مُنح للآخرين!!

كنا نظن سيدتنا جميلة وأرقى من كل سيدات الدرب الأحمر، لكن حين دخلت فادية هانم إلى بيتنا تبادلت أنا وشقيقتي نظرة تعلن أنها أجمل وأرقى، وأن فؤاد أكثر منا حظًّا..

حتى صابرنا غابت روح دعابته حين جلس أمام المهندس علي المالكي..

لا أحد فيهما مغرور، لكن على وجهيهما مسحة تقول إن ذات المقارنة دارت في رأسيهما..

تصدرا مقاعد غرفة ضيوفنا المغلقة، وحين رأيت ثوب السيدة علمت لم وكيف اختارت فاطمة ثوب اللقاء!!

دقائق قليلة صامتة استعاد بعدها الجميع قدراته ليبدأ اختبار قدرات ومهارات الآخر..

تحدثت أمي في هدوء وتبادلت أحاديث عن الأطعمة وغلاء الأسعار، وربما بعض الأغاني..

استعاد العطار مرحه وبدأ يتحدث عن تاريخ العطارة وقدرة أعشابها حتى خِلت في لحظة أن والد فؤاد سيطلب منه بعضًا منها..

فاطمة سعيدة وفؤادها أيضًا.. لا شيء سوى تلك النظرات الخاطفة التي تقتلني كلما رأيتها حين تنظر إلى حبيبها كأنها تسأله إن نال كل شيء رضاه!!

ينهي جيشه وتنهي عامها الجامعي الأخير وبعدها يأتي الزفاف، هنا قال والدي فخورًا بنفسه:

ـ نحتاج هذه الشهور لتجهيزها بأغلى وأجمل ما تتمناه!

حين جلسنا على مائدة الطعام سكبت أمي أحد أصناف طعامها الشهير، سمعت فاطمة تهمس لأم فؤاد قائلة:

ـ ماما.. سيعجبك طهو أمي.. لا أحد في الحي بأكمله يعد «ورق العنب بالكوارع» مثلها..

في لحظة نظرت أمي بحدة إلى ابنتها، لكنها ابتلعت الكلمة بسرعة وأغلقت على ألمها جفنيها..

لماذا تدعوها «ماما»؟!

علمت في تلك اللحظة أن ما حدث أغضب أمي وجرحها، لكن اليوم أعلن بكل ثقة..

لا أم سوى أمك ولا أب سوى أبيك..

هذه الكلمات خُلقت لهما وحدهما، وكل من يمنحها لسواهما أحمق وخائن كبير!!

حين ودعناهم بعد الاتفاق على بعض الأمور وبعد قبول دعوة العشاء في منزلهم، كنا جميعًا سعداء..

أغلقنا خلفهم الباب ووقف أربعتنا ينظر كلٌّ إلى الآخر، وخيمت علينا لحظة سكون كبيرة..

في تلك اللحظة علمت لم خلق لنا الله لسانًا واحدًا وعينين..

خلق الله الأعين لنرى فيها ما لا يقوله اللسان..

يا لحماقة الإنسان يغمض عينيه عن بحرين واسعين، ولا يصدق سوى عضو صغير تعبره الأطعمة وتغادره الفضلات..

ظهر في عيني أمي جرح من كلمة فاطمة لكنها لم تقل..

بدا في عيني العطار خوف عملاق يولد لكنه لم يَبُح!!

ارتسم في عيني عروسنا غمام وسعادة..

ترى ماذا كان مرسومًا في عيني؟!

لا يهم!!

ما دام اللسان لم ينطق أو يترجم ما رآه في الأعين، وما صرحت به في معظم الأحيان، فلا يُعتدّ به..

أرخينا رءوسنا جميعًا بعد تبادل كلمات مباركة فارغة، لكن لخروجها من اللسان وحدها بقيت وتجاهلنا كالعادة حديث الصادقين!!

***

يضحك جاري في زنزانة الموت كلما رآني أكتب وأطلب مزيدًا من الأوراق..

هذا الصباح قال: «يا ميت.. أحقًّا تظن قاضيك يقرأ؟ بل من تظنه يحمل إليه الأوراق؟»..

رفعت رأسي إلى سماء ساحة السجن، نظرت إلى غيومها ودققت النظر فوجدت سحابة على هيئة رجل يقرأ مبتسمًا، هَبطتْ بعيني أبحث عنه لأريه ما رأيت، فأبصرت عيناي فراشتين صغيرتين حول أشجار السور ترقصان..

سكنني اليقين أن أوراقي ستصل، وأنك كما رأيتك مرسومًا في السحاب تقرأ..

أعلم أن شيخًا أزهريًّا سيقف على إعدامي..

سَأُحمِّله أوراقي وأستحلفه بكل حرف في كتاب الله درس وقرأ أن يحملها إليك..

لا تقل لي أبدًا إن رجل دين بعهده لميت يحنث!!

بل إن كانت الظروف والملابسات والحقائق جميعها تؤكد أمرًا..

إن حضر اليقين..

إن سكن قلبك وتجول في عروقك وحده له الغلبة!!

سحابة وفراشتان غمرا روحي وتسللا كجدولين في عروقي..

ستقرأ..

أعجبتك الكلمات أم لم تعجبك.. صَدَّقت أو كفرت بما أخبرك به..

ستقرأ وتكمل، وسأرقبك من السماء حينها وأرسل إليك سحابة وفراشتين..

إن جاء اليقين لانت الأقدار وتحقق المستحيل!!

***

يقولون إن طائر «الشاهين» و«حمامة بيضاء الحنجرة» أسرع طائرين خلقهما الله..

الأيام سيدي أسرع!!

مضى العام دون أن يشعر أحدنا به..

زيارات قليلة لعائلة المالكي، حفل خطوبة بسيط جميل زغردت أمي فيه بعد أن انتقت من أصدقائنا أكثرهم أناقة وتعليمًا..

زرنا بيتهم في شارع المحروقي بمنطقة المهندسين، ارتياح ومحبة لكن وضع كل طرف حدودًا لا يتجاوزها الآخر..

فؤاد ينهي المرحلة الأخيرة من التجنيد، بينما أزداد أنا التصاقًا

وحبًا لعملي في عطارة أبي، وختمت عامي الجامعي الأول..

الأمور في ظاهرها رائعة طيبة ومرضية للعاشقين ومن حولهما..

في أحد اجتماعات العائلتين سأل العطار عن شقة خطيب ابنته على استحياء، مشيرًا إلى أننا لم نرها ولا نعرف مكانها بعد..

في هدوء ألقى فؤاد بالسهم الأول في ماء عين أبي حين قال:

ـ أملك شقة صغيرة في أحد تجمعات الشيخ زايد الأنيقة لكن...

سكت الرجل وغاب والدي لحظة كأنه يحسب المسافة بين الشيخ زايد والدرب الأحمر، وربما قبل أن تنتهي حساباته أحكم القناص توجيه سهمه إلى المآقي قائلًا:

ـ أسافر وفاطمة إلى ألمانيا بعد الزواج..

ابتسمتُ ناظرًا إلى وجه فاطمة ثم أعدت النظر إلى أبينا مشفقًا..

أعلم أنه سيحزن لسفرها، لكن ألا يسعده أن تقضي ابنته شهر عسلها هناك؟

قبل أن أقول أو أتحدث رأيتها تنظر في لوعة إلى خطيبها، شعرت بأن هناك شيئًا لا نفهمه..

عاودت النظر إلى وجه أبي فوجدته يصطبغ بألوان قاتمة، بصوت عاشق يسرقون حبيبته قال راجيًا:

ـ ألمانيا؟! في مصر مناطق رائعة يا ولدي..

أشاح فؤاد بعينيه عن فاطمة كأن وعدًا كان بينهما بعدم الحديث،

لكنه قرر حنث العهد، فقال على رجع تنهيدة من صدر أمه:

ـ حصلت على عمل بعقد مغرٍ وسأنتقل للحياة هناك بعد الزواج!!

لا نحتاج تأثيث البيت هنا، وإن قررنا العودة للزيارة أو حتى البقاء شهورًا تستضيفنا أمي أو نقيم في فندق..

ابتسم بعدها كأنه شعر برياح الموت وعواصف الاحتضار التي ضربت ملامحنا جميعًا قائلًا:

ـ أو تستضيفنا أنت يا عم صابر إن شئت!!

يقولون الأم تموت إن فارقت صغارها..

يقولون الأم تُزهق روحها إن غادرتها قطعة من هذه الروح تكونت في أحشائها، وكبرت تحت جناحيها..

بعض الأمهات حقًّا تفعل، لكن إن كان الأب عاشقًا كأبي فموته أشد، وتفتُّت روحه وتمزق عروقه لم تعرفه ولم تفهمه أنثى من قبل..

بعض الرجال يختلفون، وبعض الآباء يختلفون أكثر!!

***

حرب طاحنة بين قوتين إحداهما تملك، والأخرى لا تملك ذخيرة سوى ضعفها، وليس هناك ما هو أشد من الحب ضعفًا..

حاول والدي إثناءها..

حدثها عن الغربة.. الوحدة.. ساعات السفر..

حدثها عن الشوق.. عن الفراق..

أذكر أنه في لحظة بكى كالأطفال بين يديها يستحلفها ألا تفعل.. صاح يقول:

- أتقتلين أباك يا فاطمة؟ ومن أجل ماذا؟

أمن أجل رجل؟!

هل تعلم كيف يكون شعورك وأنت ترى أباك يبكي مستجديًا ابنته ألا تحرمه وجودها؟!

في ذاك اليوم وفي تلك اللحظات كرهت فؤاد..

تمنيت حقًّا لو كان بإمكاني أن أمحوه من أيامها، لكن وإن فعلت كيف كان لي من فؤادها أن أخلعه؟!

أبي يبكي في مرارة يسألها ماذا لو مرضت؟ ماذا لو أصابتها حمى؟ وماذا حتى لو اشتهت طعامًا لا تعرف من أين تأتي به في تلك البلاد؟!

كان يقاوم دموعه ويبتلعها في ألم، ينظر إليها وإلينا ويكمل لم تحرمه وجودها؟! وماذا لو أنجبت من يكون معها؟! ومتى يرى أبناءها؟ بل كيف يحادثهم وسيتحدثون لغة لا نعرفها؟!

كيف يكون أقرب الناس إليهم وهو في عينهم الغريب؟!

مجنون في صدره سيف مغمد، لا يعرف كيف ينتزعه من أضلعه فيهذي ويبكي راجيًا قاتله، والقاتل عاشق أعمى لا يرى أو يسمع

سوى عزف قصة هواه..

حين تعب.. حين خجل من سقوطه ذاك أمامنا وأمام أمي الصامتة، وضع وجهه بين كفيه وقال:

ـ تقتلين أباك يا فاطمة؟! والله تقتلينه!!

بكت شقيقتي.. بكت في ألم تخبره أنها تحبه لكنها تشعر أن فؤاد لن يطول به المقام كثيرًا هناك.. قالت:

ـ أشعر أننا سنعود.. ربما عام أو اثنان، لكن أشعر أننا سنعود..

سكت الباكي مذهولًا ينظر إليها في ألم وردد في صوت خفيض:

ـ عام أو اثنان!! أحدثك عن فراق يوم وتمنين نفسي بالعودة بعد عام أو اثنين!!

يا لقسوة هذا القلب!!

في جنون صاحت:

ـ حسنًا سأتركه.. أخبروه أني لن أتزوجه ولكن أكون أنا الذبيحة..

نهضت بعد كلماتها تلك إلى غرفتها، وبقيت أنا وأبي ننظر إلى أمنا التي لم تقل حرفًا، وقال يسألها:

ـ ألا تقولين شيئًا؟

كان في عيني أمي دمعة ترقص ظننتها حزنًا على فراق، لكنها في قوة لم أفهمها نظرت إليه تقول:

ـ إنه انتقام الله.. الانتقام حبًا وشوقًا!!

***

تكورت فاطمة بعدها في فراشها تبكي في هدوء حتى غابت في النوم وبقيت في فراشي أنظر إلى السماء..

أبي الذي لا يعرفه أحد كما عرفت في الشهور الأخيرة.. الضاحك المستبشر الذي يلجأ إليه الناس كطبيب القبائل.. يمنح أعشابه ليتداوى بها المرضى واليائسون..

أبي الذي يتصدق ويكور أوراقًا مالية كثيرة يضعها في أكف الأطفال والمحتاجين..

كيف أنسى دمعه وبكاءه؟ بل لم أفكر في كلمات أمي عن الانتقام..

كل رأسي وروحي عليه ممزقة..

حقًا لا شيء بعد المرض والعوز يذل الإنسان.. لا شيء أبدًا إلا الحب!!

حين انسابت دمعات ساخنة على وجنتي بظهر كفي مسحتها، ثم نهضت من مكاني ووقفت أنظر إلى وجهها النائم..

بشرتها الخمرية الناعمة.. شعرها الأسود الطويل، وشفاهها التي ما زالت تحمل آثار بكائها..

ماذا تريد جميلة كهذه؟! بماذا تبيع حبًا كهذا؟!

انثنيت عليها أوقظها، حين فتحت عينيها في ذعر رأيت آثار دمعة

نامت بين جفنيها..

لم أنتظر أن تسأل وقلت:

ـ اهجريه يا فاطمة.. اهجريه.. انصري أباك..

باع سيمبسون عرش بريطانيا من أجل الحب..

إن كان فؤاد يحبك لن يبيعك بوظيفة في ألمانيا..

كأن أفعى لسعتها في عينيها.. انتفضت من فراشها تصرخ في صوت مكتوم تحدثني عن حبها له.. عن حقها في الاختيار.. عن رغبتها في السفر والحياة بعيدًا عن أزقة البلاد الضيقة وعرق الزحام ورائحة المخلفات..

قالت إن الله يخلقنا لنختار كيف نحيا..

«آباؤنا يا رجائي لا يملكوننا لمجرد حبهم لنا».. أريد لأولادي حياة غير حياة هذا البيت الصامت..

قالت إنها ما عادت طفلة.. بل امرأة تريد رجلًا وبيتًا وأطفالًا..

ما تريده ليس عقوقًا، وما تختاره ليس في أبيها أو أمها كرهًا..

قالت:

ـ لهذا منحني الله قلبًا وعقلًا.. منحني الأول لأختار به من أحب بعد أبويّ، فحبهما فطرة لا اختيار، ثم منحـني عقلًا لأختار حياة غير بيتهم..

لم تنكرون حق الله عليّ؟ لم؟! ولم أُصبح قاسية عاقة إن أنا بما

أعطاني الله أتمسك؟!

يا من تحكم بين الناس أخبرني أيهما على حق وأيهما على ضلال!!

قصة واحدة كلا طرفيها رأيته على حق..

قصة واحدة لكن لا يمكن أبدًا أن تنتهي إلا بسقوط ضحية وانتصاب جانٍ..

أرخيث رأسي في انكسار..

هي الأقوى ليس لقوة حجتها أو أحقيتها كما قالت في الحياة والاختيار..

فاطمة الأقوى لأنها تريد وفي مرحلة ما من العمر يحيا الآباء فيها لتحقيق ما يريد أبناؤهم، وإن كان الثمن دمعهم وانكسارهم..

ذاك كان الدرس الأول الذي لقنته لي شقيقتي..

لا تدع حبهم يتملكك أبدًا.. لا تجعل من أبنائك نقطة ضعفك، وإلا ضاع سلامك وماتت هيبتك!

الدروس نحفظها - سيدي - زمنًا ثم ننساها، وإلا ما شقينا ولا أثِمْنا..

نسيان الألم نعمة لكنه في بعض الأحيان نقمة كبيرة!!

***

وديدة!!

جاءت وفي يدها ممحاة صغيرة محت بها كل ألم تلك الأيام!!

كنت في محل العطارة أرقب وجه أبي الذي ما باتت تسكنه الفرحة القديمة..

يمسك مسبحته في يده ويردد «لا حول ولا قوة إلا بالله»..

وفي كل مرة يقولها وأسمعه يخرج صوت من خلف أضلعي يتضرع إلى الله بإقصاء فؤاد عن درب أيامنا..

يا من تقلب بأصبعين من أصابعك القلوب اجعل فؤاد يزهد أختي ويكرهها.. أو فلينقلب عليه أهل ألمانيا ويرفضون ذهابه.. أو فلتعيده إليك وتسكنه جناتك قبل أن يقلب أيامنا جحيمًا!!

كنت أدعوه دومًا في صمت، وكلما سمعت العطار يدعو الله ويسبحه أدعوه أكثر..

في لحظات قليلة أشعر بوخز.. وخز صغير في قلبي يسألني ماذا لو مات فؤاد واستجاب الله؟!

تحزن أمه.. يبكي أبوه.. أخته يقتلها القهر.

أختك - رجائي - باستسلامها وضعفها وحدها المذنبة!

ويعود صوت آخر يخبرني أن أختي مُغيبة..

غَيّب فؤاد عقلها، وهو ذنب آخر يستحق عليه الموت أو الإقصاء..

في إحدى تلك المرات التي بالغ جنوني في صوره.. تخيلت فؤاد يموت وأختي تتعافى من حزنها عليه ويستعيد أبي روحه ويهدأ قلبي..

شعرت بابتسامة على وجهي حين تخيلت نبأ موته..

ابتسامة لا أعرف كيف أمحوها حتى بأصابعي..

موت رجل واحد يحيي عائلة بأكملها!!

كان أبي ينظر إليّ في ذهول وأعلم أنه على حق، لكن لا أتحكم في شفاهي أو فرحتي..

جاءني صوتها المرتجف يوقظني..

صوتها الضعيف النائم وحده يهزني دون حتى أن أرى وجهها..

صوت صغير مرتجف يقول «فضلًا.. فضلًا أجبني»!!

انتفض العطار يجيبها وانتفضت أستغفر الله من جموح أفكاري..

استدرت إليها ووالدي يحادثها..

صغيرة ضئيلة منمنمة.. في عينيها كأعيننا دمعة تناضل لتمنع جيوشًا خلفها من السقوط..

سمعتها تقول:

ـ السعال يقتله.. أرجوك شيئًا يهدئ صدره بأي ثمن وأنا أدفع..

هدأها العطار وسألها متى ظهر السعال؟ وهل يعاني من مرض؟ كم عمره؟ هل يتعاطى عقاقير طبية؟

أجابت أسئلته جميعًا وختمت حديثها قائلة:

ـ لا أحد لي سواه.. إن مات أبي أموت..

نهضت عن مقعدي أنظر إلى وجه أبي الغائم..

ابنة تحاول إنقاذ أبيها بينما تسعى ابنته لقتله!!

كاد وكدت نبكي لكنه تماسك يقول:

ـ هناك أمور لا تداويها الأعشاب لكن دعينا نحاول..

ظننته يصف لها البابونج أو الزنجبيل أو حتى أوراق الجوافة، لكنه توجه إلى المخزن الداخلي، ثم عاد يمنحها بعضًا من عشبة «آذان الدب» قائلًا:

ـ هي أقوى ما عندي.. معها امنحيه عسلًا دافئًا وأخبريني..

قبل أن تمضي وضعت النقود في يدي، وأخبرتها أمام والدي أني سأمنحها رقم هاتفي إن احتاجت شيئًا..

ـ أي شيء تحتاجينه سأفعله.. لا تخشي شيئًا، لستِ وحدك بعد اليوم.. أنا وأبي لك أهل..

كادت دمعتها أن تسقط لكنها، أشاحت بوجهها تتمتم بكلمات شكر، التقطت بعدها بطاقة العطارة بعد أن كتبت عليها رقمي الشخصي..

قبل أن تبتعد صحت أسألها عن اسمها واستدارت على عجل تقول:

ـ وديدة!

نعم وديدة حب العمر وشوكة وضعتها بيدي في قلبي ومآقي عيني!!

***

غابت وديدة ما يقارب الشهر.. لم تظهر ولم تحادثني مرة، حتى كدت أظنها أنا وأبي حلمًا حلمناه معًا..

لا نعرف عنها شيئًا، وكان هذا من أغرب الأشياء!!

في حوارينا الضيقة نعرف جيراننا وحتى زوارنا، سألت عنها من رآها من عُمَّال العطارة، لكن لا أحد رآها أو يعرفها..

مات أبوها!!

قتلته أعشاب أبي؟! فلم لم تأتِ لتعنيفه كما اعتدنا إن خابت وصفته؟!

إذن شفي الرجل! أما كان إذن بإمكانها أن تشكرنا بكلمة؟!

ابتسم العطار ابتسامة مريرة حين أخبرته بما يدور في رأسي، وقال:

- الناس يا ولدي لا يشكرون، وإن شكروا فثق أن حاجتهم منك لم تنتهِ بعد!!

***

اقترب موعد الزفاف وآن أوان الرحيل..

خمس حقائب تئن بملابس وأغطية ومناشف لعروس لا بيت لها، ورغم هذا تكاد أذرعتها تطير بها عشقًا وفرحًا..

أبي كلما دخل البيت ورمقت عيناه حقيبة جديدة تُغلق وتصطف إلى جوار الأخرى، مات في وجهه شريان، وانطفأت في روحه

قطعة..

شرايين مقطوعة وقطع مبتورة، وحدي أراها.. حتى صوته وهو يناديها كان يومًا بعد يوم يذوي وينطفئ..

سيدة نفسها رغم أنها أكثرنا ثباتًا بدأ شعاع الخوف يعشش في طيات ملامحها..

فاطمة في تلك الظهيرة تهللت تخبرنا أن كل لوازمها اكتملت، وأنها وفؤاد سيذهبان لحجز قاعة في أحد فنادق القوات المسلحة، حيث يقضيان ثلاث ليال بعد حفل الزفاف، يغادران بعدها إلى وجهتهما!

في صوت محشرج مذبوح طلب منها أن يؤجلا موعد الزفاف عدة أسابيع..

أب يحاول أن يطيل في عمر احتضاره، وعروس تتعجل مولد ليلتها..

رأيت دمعة تطفق على عيني أمي، قالت بعدها:

- علي ابن الحاج مرتضى يحيا هناك.. يقول إنهم لا يحبون الغرباء ولا...

قبل أن تكمل قاطعتها العروس منطلقة في إحدى خُطبها التي أجاد فؤاد تلقينها إياها..

الحياة اختلفت..

ميونخ أحد أجمل بلاد أوروبا.. سيمنحونهما الجنسية، وأيضًا

سيلتحقان بالعمل، ويدخران أموالًا ويشتريان في مصر بيتًا كبيرًا..

سكتت حين رأت جميع رءوسنا مدلاة فوق صدورنا، نهضت في عصبية تقول:

ـ ألا يُشعرني أحدكم بالفرحة لي أو معي؟! لماذا تبترون فرحتي؟!

استدارت إلى أبي تقول:

ـ أحقًّا تريد إلغاء الزواج؟ ما عدت أهتم فلنفعل..

مدت يدها إلى هاتفها الصغير تخبرنا أنها ستلغي كل شيء، وأسرعت أمي تنهاها.. رفع والدي رأسه، رأيت عينيه اللتين ما خلتا من الدمع زمنًا يقول:

ـ تعلمين أن كل ما نعانيه من أجل سعادتك لكن...

نهضت من مكاني في سكون أخبرهم أني على موعد مع أحد الأصدقاء..

مَللتُ ما يدور.. مللت ما تفعله فاطمة وما يحدث مع العطار..

تعبت حتى أصبحت أنتظر زواجها وسفرها..

انتظار الفراق أكثر إيلامًا من الفراق نفسه..

فلتتزوج ولتذهب، فلتسقط أمي، وينهَرْ أبي..

فلنبدأ رحلة الموت والتعافي..

الانتظار ذل ما عدت أحتمله، ولا عدت أرضاه لقلب هذا العاشق

أبدًا..

خرجت إلى الشارع أجوب كل حواري منطقتنا..

رأسي فوق صدري وصدري يزفر أنفاسًا متلاحقة يائسة..

تذكرت جميع تفاصيل حياتنا..

رأيت بعيني حبه لها.. كيف يدللها.. كيف يحدثها، وكيف كانت قبلُ تستجيب..

شممت رائحة قطع البطاطا الحارة التي كان يحملها إلينا، ويضع القطعة الأولى في فمها..

سمعت صوته حين يتحدث عنها أو معها، ولطمني صوته المرتعش المرتعد في الأيام الأخيرة..

كانت أول من قاد سيارته، بل إن العطار قام بتغيير سيارته يوم قالت في عفوية حين كنا نشاهد أحد المسلسلات، إن سيارات البيجو تستهويها..

كيف يعشق رجل ابنته إلى حد الجنون والظلم..

لكن ما غضبت يومًا منه.. قطعة البطاطا الثانية أو العسلية التي يمنحها لي كانت ترضيني..

عناق ذراعيه المحمل برائحتها وآثارها كان يدفئني، أشهد الله أن صابر العطار كان عاشقًا، لكنه لم يكن ظالمًا عدا أن في بعض العشق ظلمًا للنفس كبيرًا!!!

***

قادتني ساقاي دون أن أدري إلى أحد أجمل ما يتميز به دربنا الأحمر..

حين أجهدتني الذكريات وأنهكتني الصور، وقفت لأرفع رأسي وتسقط دمعاتي ومن خلفها رأيته، تنهدت..

إنها من الله رسالة.. منه علامة..

منذ طفولتي أحب هذا البناء، وكنت إن أردت مكافأة نفسي حضرت إليه مع فاطمة لنلعب في ساحته ثم نصلي ركعتين ونمضي..

مسجد «النور» ناداني..

مسجد «آق سنقر» أو كما يدعوه أهل دربنا «الجامع الأزرق» أستقطب خطواتي لأصل إليه..

كيف يحب إنسان مكانًا ما ويرتبط به بهذا الشكل دون أسباب واضحة؟!

بل كيف أحب مسجدًا كهذا وأنا أعلم أنه رغم قيمته المعمارية بُني فوق هياكل موتى مقابر أهل القاهرة؟!

ولكن ألا يحب أبي فاطمة ويبقى يرجوها تأخير زفافها أسابيع قليلة؟

ربما في عائلتنا «جين» فاسد يعشق رائحة الموت والعذاب..

استغفرت ربي ودخلت صحن المسجد الكبير..

دُرْتُ برأسي يمينًا ويسارًا كأني بأعمدة المسجد أستغيث..

يا مكانًا كان فرحة طفولتي جئتك مثقلًا بالحزن على أبي.. مهموم بقسوة قلب أختي..

اسكب على روحي طمأنينة.. اسكب على قلبي أمانًا وشيئًا ما يسمونه البهجة..

قلبي سعيد لسعادتها لكنه على أبي حزين..

ألقيت بنفسي على أحد المقاعد الخشبية التي يضعونها بداخله، وأخذت أنظر إلى حوائطه الزرقاء المزركشة..

الأزرق يغسل الروح..

الأزرق لون السماء والبحر، يجلب شيئًا من السلام..

أخذت أتمتم بالدعاء لأبي ولفاطمة..

أريدها سعيدة مع فؤادها، وأريد الجبر لفؤاد أبي يا الله..

عيناي مغمضتان وكل قطعة في روحي تصلي لهما، سمعت صوتًا خافتًا يقول:

- أبي.. أبي يا رب.. لماذا دون آباء الأرض جميعًا؟!

سكتت صلواتي فجأة وأنا أُنصت في ذعر إلى الصوت الذي عاد يقول:

ـ إلى من أذهب؟! إلى من أشكو؟!

أعلم أنك لن تعيده لكن ربما بإمكانك أن تأخذني إليه..

الصوت يبكي مما يؤكد أنه من أضلعي، لكنه صوت نسائي..

هل بداخلي امرأة؟!

في تثاقل فتحت عيني أنظر إلى مقعد مجاور ووجدتها..

امرأة متشحة بالسواد، وجهها بين كفيها غائب.. صوتها يعلو وينخفض بالكلمات..

شيء دعاها إلى السكوت كما دعاني إلى النظر إليها..

رفعت رأسها واستدارت تنظر نحوي بعينيها المبللتين..

شهق كلانا شهقة صغيرة وهمست:

ـ وديدة!!

كأنها عرفتني.. كأنها تذكرتني، أو ربما عن إنسان يسمعها كانت تبحث..

أجهشت في البكاء تقول:

ـ مات أبي!!

اقتربت من مقعدها أقول:

ـ وأنا يكاد أبي أن يموت!!

***

الحزن جمعنا.. الضياع والخوف دعوانا معًا إلى أرض مسجد آق سنقر..

ليس عبثًا ولا مصادفة..

الحمقى أيها القاضي وحدهم حين يعجزون عن إدراك الرسائل وقراءتها، يتذرعون بالصدف!!

لا شيء يحدث صدفة..

ضالان اجتمعا تحت زرقة سماء ذاك المسجد..

شَرِيدان على مقعدين متجاورين اجتمعا ليبقيا عُمْرًا..

من يجمعهم الضياع والخوف ماذا يفرقهم؟!

رغم أني بلا تجارب.. رغم أني بلا خبرات، نهضت عن مقعدي وانتقلت إلى جوارها..

مددت ذراعي وشعرت بها تميل إلى كتفي برأسها..

عانقتها..

عناق شعرت فيه أنها من تضمني..

بكت على كتفي كثيرًا وطويلًا..

لم ترَ دمعاتي التي كانت تسقط، لكني شعرت أن شيئًا فيه قدسية يحدث..

شيء ولد بين أركان مسجد عمره آلاف الأعوام.. شيء يستحق

الوقوف أمامه بل الانحناء..

حين هدأت.. حين سكنت ابتعد كل منا بجسده لتلتقي عينان باكيتان حائرتان..

لا قالت ولا نطقت حرفًا..

عهود العين بلا صوت ودون كلمات.. الصمت دومًا أبلغ وأصدق عهد يقطعه على نفسه الإنسان..

نهضنا معًا في ذات اللحظة كأن قرارًا بيننا تم اتخاذه..

في طريقنا إلى خارج المسجد قلت:

ـ وديدة أنا أبوك وأنتِ أمي..

***

منمنمة وديدة في كل شيء..

ملامحها.. طولها، وفي كل ما نالته من حياتها..

تعليمها.. أقاربها.. ضحكاتها، وحتى مرات بكائها..

هكذا كانت تحكي وتقول متكئة على ذراعي في طريقنا إلى بيتها..

دخلنا إحدى حارات شارع الوزير الضيقة، وقفنا أمام مدخل البيت، نظرت إلى وجهي قائلة في ألم:

ـ ما عدت أطيق دخول البيت.. البيوت الخاوية تخيف إن خلت من الأحباب!!

أرخت عينيها العسليتين الصغيرتين تكمل :

ـ أصبح أبي شبحًا يطاردني في البيت الصغير.. شبحًا لا أحتمل رؤيته ولا أطيق اختفاءه..

خطت نحو بيتها في هدوء وناديتها.. حين استدارت أقبلت نحوها ومددت كفي إليها قائلًا:

ـ لا تدخلي.. تعالي معي..

تنهدت ومنحتني كفها كأن السماء استجابت لدعاء في صدرها..

بيتها عن بيتنا ليس بعيدًا، لم يكن في نيتي أن آخذها إليه، لكن وجدتني ووجدتها على باب البيت نقف..

تثاقلت خطواتها تنظر إلى باب البيت كأنها تذكرت وأفاقت..

أسرعت أخبرها أن في البيت أبي وأمي وأختي العروس..

اخبرتها أن أبي سأل عنها كثيرًا، وأننا جيران، والجار برفقة ورحمة جاره أولى..

اخبرتها عن فاطمة وزفافها.. عن أبي القديم الذي يوزع الضحكات، وأمي التي يخشاها الناس ورغم هذا يحبها الجميع..

وقفت أمامي تسمعني كأنها تحاول أن تقتنع، وتحدثت أساعدها أن تفعل..

في نهاية حديثي سألتها:

ـ هل تريدين أن أحادث فاطمة أو أمي لتطل إحداهما من النافذة

وترحب بك؟ هل تريدين أن أحادث والدي لتسمعي فرحته بظهورك؟

أرخت عينيها ورفعتهما تهز رأسها بالموافقة، مضت معي نحو مدخل البيت..

أشفقت عليها أكثر حين فعلت..

إنه اليأس!!

وحده يجعلنا نَقْبل ما لا يُقبل، ونمنح أيدينا للغريب..

على أول سلالم البيت وقفت تنظر إلى وجهي في خوف وقالت:

ـ ما اسمك؟!

ابتلعت شهقتي أقول:

ـ رجائي يا وديدة..

أمسكت كفها وأكملت:

ـ لا تخافي.. أعاهدك على الأمان والسلامة..

صعدنا درجات سلالم البيت وخنادق من الإشفاق عليها تشق صدري..

قاتل الله اليأس الذي يقتل فينا كل صوت، حتى صوت العقل والمنطق، ويجعلنا نُسلم أيامنا وأرواحنا إلى المجهول!!

***

أحبتها سيدة ورحب بها أبي، جالستنا العروس ترقبها في حذر..

استزادها والدي كثيرًا في الحديث عن أبيها وشوقها إليه، وكلما سقطت دموعها نظر إلى فاطمة كأنه يتمنى لو تحبه كما تفعل وديدة..

طال السمر، أعدت أمي عشاء طيبًا، تناولناه في محبة كأننا رفقاء منذ دهور..

لم يتركها العطار تمضي خاوية اليدين، ولا زوجته فعلت..

طعام ونقود رأيته يدسها في مظروف صغير وضعه بين صحون الطعام المغلقة، وهكذا أصبحت وديدة فردًا من عائلتنا..

أعود من دكان العطارة لأجدها مع أمي، أو أمر على بيتها لأحضرها معي إن تغيبت بضعة أيام..

مضت الأيام أيها القاضي ولم نفق إلا على أعتاب يوم كبير..

كان يومًا يدعونه «الفرح» وأدعوه أنا «يوم الانقلاب الكبير»..

فاطمة أجمل عروس رأتها عيني.. ألهذا حقًّا يحبها أبي إلى هذا الحد؟!

وديدة أيضًا كانت جميلة رقيقة، لا تفارق العروس لحظة، تنحني لالتقاط ذيل ثوبها أو طرحتها البيضاء الطويلة..

تداعب أمي، تطلق الزغاريد.. تنظر إلى أبي في إشفاق كبير، وتمنحني بعض الابتسامات المؤازِرة..

أمي اختارت من أصدقائنا أكثرهم أناقة، ورغم هذا كان الفرق جليًا

بين جانبنا وجانبهم..

صديقات فاطمة جميعهن أتين يرتدين لونًا واحدًا، وحين سرن أمامها في الزفة التي اختارتها مع فؤادها، نظرت إلى أبي لأجد لونه شاحبًا رغم ابتسامته الباهتة، حتى أمي رغم ثوبها الأسود البراق كان حزن عينيها أكثر ما يخطف البصر..

السيدة فادية أيضًا كانت شاحبة لكنها أكثر ثباتًا وهدوءًا..

جلسنا على مائدة أمام العروسين كالغرباء..

أمي وحدها تتحرك تتبعها خلفها وديدة بين موائد المدعوين القليلة، وحدي مربوط بخوفي على مقعدي بجوار العطار..

أقسم بالله في علاه أن ذاك الرجل كان إلى جواري يتحول ويتكسر، مراقبًا عشقه الكبير بين ذراعي رجل آخر..

حين ذبحا كعكة الاحتفال ومنحا أبي قطعة نظر إلى عيني قائلًا:

- طعمها مر كالصبار!!

ليست الكعكة يا أبي، لكنه الفراق!!

تأبطت ذراعي زوجها وانطلقا إلى غرفتهما في فندق الماسة حيث كان الاحتفال، واتكأ أبي على ذراع وأمي على الذراع الأخرى..

حتى فاطمة رأيت في عينيها شيئًا من خوف، ماذا ينتظرها؟ وماذا من فراقنا تنتظر؟

حين فتحت باب بيتنا في الدرب الأحمر..

حين دخل ثلاثتنا إلى صالة البيت شعرت بجدران البيت حزينة، استدرت إلى أبي كأني أسأله إن كان ما أراه حقيقة أم وهمًا..

ماذا رأيت؟!

شاخ العطار فجأة كأن أعوامًا مضت..

مد يده يتوكأ على ذراع أمي قائلًا:

ـ انطفأ قنديل البيت واحترق زيته!!

***

تحامل الشيخ العجوز على عصاه في اليوم التالي حين زرناها، تحامل على ذراعي أكثر حين ذهبنا معًا إلى البنك ليستخرج لها حوالة بخمسة آلاف يورو..

حين حاول أن يخبرني أنها هدية زفافها لم أدعه يكمل وقلت صادقًا:

ـ نقودك.. اصنع بها ما شئت وامنحها كاملة لمن تشاء..

في المطارات سيادة القاضي تتكشف الوجوه وتسقط الأقنعة..

في المطار بوابتان أرى إحداهما كغرفة الولادة، تقف على بابها راقصًا على طنين قلبك ورجع صلواتك، تنتظر وصول من تحب..

وفيه أيضًا بوابة أخرى كالقبور تودع فيها من تحب وأنت لا تعلم أيكما من مات!!

أنا والعطار وسيدة ووديدة معًا على جانب، وفادية مع زوجها على

الجانب الآخر..

نحن لا نرى سوى فاطمة، وعيونهم لا تتسع إلا لفؤادهم..

حين غابوا بعد أن اختلط الدمع بالقُبل، حين نظرت في ذعر إلى رأس أبي الذي انحنى وزادت شيباته، منحته ذراعي ليتكئ، وخلتني لشدة وهنه أسقط به، مضينا إلى سيارتنا دون حتى أن نحيي عائلة فؤاد..

ليس كرهًا لكن عمًى وضياعًا..

حين انثنيت أرفع ساق أبي إلى داخل السيارة، جلست أمي إلى جوار وديدة، قبل أن أنطلق بالسيارة، سمعت أبي يقول في وجع:

ـ آه يا قلبي..

خنجر تلك الكلمة.. خنجر سال على نصله دمي ودم كبريائه..

أشاحت أمي بوجهها في كبريائها العنيدة في ألم، كأننا للتو أدركنا غيابها..

استدار ينظر إليها قائلًا:

ـ بماذا دعوتِ الله يا سيدة؟!

شهقت تنظر إليه وأرخت عينيها، وأكمل:

ـ الانتقام حبًّا أم القتل ضعفًا وعجزًا؟!

كلمات أمي إذن تلك المرة لم تكن عبثًا.. هناك قصة.. هناك ماضٍ.. هناك مأساة..

ما خلق القصة، وأحيا الماضي، وأوقع المأساة، شيء واحد اسمه الحب..

حتى الحب.. الحب أسمى وأجل ما خلق الله، إن زاد وكبر فَجَّر حامله وقتله!!

بطرف عيني نظرت إلى وجه وديدة في المرآة، وفي صدري أقسمت قسمًا كبيرًا..

«لن أنجب فتاة، وإن أنجبت لن أدع حبي لها يصبح قاتلي أبدًا»!!

***

جميعنا خلقنا من ماء وطين، لكن لبساطتنا وعمق جهلنا نظن أن كُلًّا منا يختلف!!

جميعنا في الحزن نبكي، في الخوف نصرخ، في الألم نتأوه ونئن، وفي الحب نطير.. إلا الغياب!!

نعم.. للغياب قوانين أخرى!!

حين يغيب عنك من أسكنته عروقك وألقمته انفاسك، أنت لا تصدق.. تنكر قبل أن تستنكر، ولحماقتك تبحث عن بديل..

ظننث أبي ينهار ويسقط زاحفًا على عكازه..

ظننت موت كل شعيرة سوداء في رأسه الطيب في الصباح التالي..

نظن ونظن، وما يأتي دومًا يختلف!!

أما قلتُ لك سيادة القاضي للغياب قوانين أُخر؟!!

حين خرج العطار من غرفته بعد غياب تفاحة عينه، أفرغ كل ما بداخله على رأس وديدة..

ألحقها معنا بالعمل في دكان العطارة.. اشترى لها ثيابًا وحُليًا ذهبية..

عاد يقهقه في وجودها ويتكئ على ذراعها عوضًا عن ذراعي.. قهقهة جوفاء خاوية، نحن أبدًا لا نبحث عن الغرف الخلفية!!

كلاهما فقد حبًا، وكلاهما لحماقته ظن أنه وجد البديل..

في بعض الأحيان ظننت أمي منها تغار، وفي أحيان أخرى كنت أراها لها ممتنة..

لا يختلف الأمر أبدًا عن امرأة هجرها زوجها، فتلقي بنفسها بين ذراعي أول غريب، وتقسم أنه العوض!!

في الحب لا عوض.. في الحب لا بديل، لكن متى كان للمذبوحين أعين؟

ثلاثة أشهر.. كلما حادثتنا فاطمة أراه يقاوم دمعة صغيرة، يعض جفنًا على آخر، يتعجل إنهاء الحديث، ويبحث عن وديدة!!

جميع المسكنات كاذبة.. جميعها خدعة..

نتحايل بها على الألم حتى تخوننا في لحظة..

الألم لا يُسكّن..

إما أن تعالجه أو يعود أكثر شراسة فيقضي عليك!!

في ذاك المساء.. بعد شهور ثلاثة من سفرها.. على طاولة الطعام الصغيرة، وديدة تجلس على مقعد الغائبة، وأبي بين حين وآخر ينظر إليها..

سمعت صوت أمي من المطبخ فذهبت إليها..

على يديها صينية بطاطس باللحم، أسرعت لألتقطها، فأشارت بعينها إلى صحن صغير من «الكشك» أعدّته لأحمله، وقالت:

ـ صنعته من أجل وديدة.. أين هي؟!

خرجنا بما نحمل إلى صالة البيت، بعد أن أخبرتها أنها تجلس مع العطار على المائدة..

لم نجدهما عليها، استدرت بعيني أنظر لنراهما من خلف زجاج غرفة الضيوف..

وديدة على صدر أبي وهو يعانقها بشدة..

ارتجف الصحن في يدي، وألقيت به على المائدة، استدرت إلى أمي أحمل عنها ما تحمله لأجد في عينيها أطياف دمع..

هززت رأسي كأني أنفي عني وعنها ما تفكر فيه..

توجهنا إليهما.. أصيح رغمًا عني أناديها..

استدارت وديدة وفتح العطار عينيه، أطلا من خلف الباب، لحظات لا أحد يفهمها.. لا أحد يصدقها..

كل منا في رأسه سؤال وتفسير..

العطار تقدم في خطوات مرتبكة نحونا، ووديدة تنظر إلى وجه أمي في خوف..

حاولت أن تتحدث، لكن سيدة انسحبت في هدوء إلى غرفتها، وقال أبي:

- ماذا؟ هل.. هل تعتقد؟!

تبعها إلى غرفتها، ولم ألحق به أو بها..

بقيت أحدق في وجه وديدتي أبحث بين الثنايا عن شيء.. عن إجابة..

كانت دموعها تخطو على وجنتيها وتردد:

- حادثته فاطمة، نهض باكيًا وتبعته..

كان يبكي، حين لحقت به ضمني إلى صدره.. رجائي؟!

تهذي أمامي، وأمامها أنتفض..

أدركت أني أحبها..

رفعت ذراعي وضممتها في قوة إلى صدري.. حاولت أن تتحدث وتقسم وتقول، قلت في حزم:

- اصمتي.. اصمتي.. دعيني أسمع صوت عناقك..

كأنها بكلماتي فوجئت.. سكنت تمامًا، ومن خلف دموعها ابتعدت

قليلًا تحدق في عيني، ضممتها أكثر حتى خلتها تذوب على صدري، وهمست:

ـ حتى العين تكذب أحيانًا.. إلا العناق صوته صادق، دعيني أسمع..

هدأت أوصالها وارتخت كل قطعة فيها..

جريح أنا مثل أمي، لا مخرج لي أو أمامي سوى صوت العناق، الذي دون ألستنا وأعيننا لا يكذب!! صوت العناق..

ألا ليت أبي في غرفته الخلفية يترك ذراعيه تخبر أمي بالحقيقة، وألا ليتها تستمع!!

***

لم يناقش أحدنا الآخر في الأمر.. فقط وأنا في فراشي تلك الليلة أرسلت إلى شقيقتي رسالة أسألها عما دار بينها وبين العطار..

أجابتني قائلة «أخبرت أبي أني حامل»..

هل فرحت؟ هل تخيلت نفسي وأنا خال يحمل وليد أخته؟!

هل ركضت إلى أمي أهنئها؟

لا شيء من هذا فعلت.. فقط استدرت بجسدي أنظر إلى فراشها الخاوي، وتنهدت في ألم..

لو كانت هنا.. لو علمت النبأ وشقيقتي في أرض أستطيع أن أطأها بقدمي لذهبت..

لنظرت في عينيها وضممتها ودرت بها ورقصنا..

أقترح أسماء ومحلات ولوازم، أدندن معها بأغاني الميلاد والسبوع..

أرى في عينيها الخوف من الحمل والولادة.. وترى في عيني ساعدًا تحتمي به وقلبًا تأنس إليه..

هكذا تكون الأخبار سارة.. هكذا نشعر ونحتفل بها، هكذا نطرب للنبأ السعيد..

بالعناق والنظرات.. بالكلمات والدفء..

حين يصبح النبأ السعيد رسالة على هاتف، أو صوتًا من بعيد، يفقد جُلَّ معناه!!

فاطمة بعيدة.. حتى رائحتها غابت عن أغطية فراشها!!

نبأ حملها ما أسعد أبي، بل أبكاه وجعله يلقي بنفسه بين ذراعي وديدة..

نبأ حملها ما أسعدني، بل تركني أبحث عنها وأفتش عن رائحتها..

الغياب يقتل كل شيء يقطع رأس كل فرحة..

وهذا وحده النبأ العظيم!!

***

حين يكون الشيء أكبر من عقلك ومشاعرك تصبح هناك مراحل يجب أن تعبرها للتعامل معه!!

غياب فاطمة كان أكبر من كل ما يحتمله عقل العطار ومشاعره..

حاول الهرب من السقوط واحتمى بفتاة عابرة جاءته تبكي رحيل أبيها..

حين انقطعت وديدة عن زيارتنا كان على عقله أن يجرب حيلة أخرى..

العقل يخدع إن كان عليلًا أو يعاني!!

ما عاد يتأرجح ليستند على ساعدي، وما سأل مرة عن وديدة.. كأن دورها في خطوط عقله الدفاعية قد سقط أو انتهى..

بدأ يزاول نشاطه في دكانة العطارة بذات القوة القديمة..

عاد يحاضر زبائنه ويستعرض معلوماته التي يدعوها طبية، وأراها معجون خبرة وفهلوة تجارة..

أمي صامتة.. هادئة تحادث ابنتها وتسألها عن مواعيد الولادة وإمكانية الحضور..

وديدة انقطعت عن الدكان، وما عادت تسأل عن أي منهما، أصبحت وحدي ملاذها.. أنهي عملي كل يوم وأذهب إليها..

نلتقي، نجوب الشوارع أو نجلس في ساحات المساجد المنتشرة في الدرب الأحمر..

نتحدث عن ذكرياتنا وأحلامنا.. نتبادل نظرات عميقة وقبلات خاطفة..

جميعنا تائهون، لكن لا أحد منا بتوهانه يعترف..

في ليلة ما التوى كاحل وديدة في أحد الفراغات المنتشرة في أرض دروبنا..

تألمت وعجزت عن المشي.. جلست بها على أول سور متهدم التقيناه..

وما أكثر الأسوار المتهدمة في حينا..

رفعت ساقها ورأيت كاحلها متورمًا.. تتألم حتى أنها ما احتملت أصابعي التي حاولت بها تدليك كاحلها..

بقينا على ذاك السور ما يقارب الساعة، ثم تركتها راكضًا إلى

صيدلية قريبة..

اشتريت لها أقراصًا مسكنة ودهانًا وعدت إليها..

حين استطاعت المشي توكأت على ذراعي حتى باب بيتها..

حاولت أن تصعد سلالم البيت، ثم بكت تخبرني بعجزها..

لو أن الأمور كما كانت منذ أسابيع لحملتها إلى بيتنا، لكن لا شيء في الحياة يبقى كما كان..

مددت ذراعي إلى ساقها وحملتها بالذراع الأخرى، صعدت بها..

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها بيتها..

شقة صغيرة نظيفة.. كل ما فيها مرتب وبسيط..

لا غرف مغلقة ولا غرف خلفية..

البيت بأكمله صالة ضيقة، بها مائدة طعام صغيرة، وأريكة جميلة رغم تهالك قماشها.. على تلك الأريكة أرخيت ذراعي ووضعتها..

شاشة تلفاز صغيرة في الركن المواجه، غرفة بابها مفتوح وأخرى بابها مغلق..

حين رأت عيني تقف على الأخيرة قالت من بين ألمها:

ـ غرفة أبي.. أنظفها عاجزة عن ترك بابها مفتوحًا..

سكتت لحظات وأكملت:

ـ ربما أغلق الباب لأصدق أنه نائم خلفه..

ابتسمت ابتسامة صغيرة وقلت:

ـ نخدع أنفسنا يا وديدة..

الفراق أكبر من رؤوسنا وقلوبنا وإدراكنا..

دلكت لها كاحلها.. خلعت عنها حذاءها.. منحتها أقراصًا أخرى من المسكن الذي أحضرت، أخبرتها أني سأصنع لها دهانًا في الصباح من بعض الأعشاب وزيت الزيتون..

رغم تألمها في جنون، كنت واثقًا أنه التواء بسيط أو تمزق، ولا كسور فيه..

من قال إن الكسور وحدها تؤلم؟!

أما قالوا إن معظم النار من صغار الشرر؟!

حملتها مرة أخرى ووضعتها في فراشها..

أحضرت لها قنينة ماء من ثلاجتها الخاوية، ووضعت بجوارها قميص نوم لترتديه..

تمنيت لو أبيت معها، لكن كنت أعلم أنه في حي كحينا لا أحد أبدًا يهتم للحقائق..

نظرت إليها كأني أعتذر، ووعدتها بالحضور في الصباح الباكر..

ـ الهاتف في يدك، ولا يفصلني عنك سوى شوارع ثلاثة.. إن زاد الألم، بل إن حتى أردت الخروج إلى الصالة، حادثيني أكن عندك بعد دقائق..

منحتني مفتاح بيتها قائلة:

ـ أرجوك.. افتح غرفة أبي تجد عكازه..

امنحه لي لأستند عليه إن اضطررت للوقوف..

حين فعلت رأيتها تتحسس العكاز في حب وألم..

قبل أن أغادر غرفتها استدرت أقول:

ـ وديدة أعيدها عليك للمرة الألف.. أنا معك.. لستِ وحدك أبدًا..

أرخت أجفانها على دمع يسقط، وقالت في محاولة للضحك:

ـ لا تتأخر وأحضر في الصباح إفطارًا يكفينا معًا!!

***

ترى كم استغرق سقوط قنبلة هيروشيما؟!

كم استغرقت انقلابات المحتلين وحروب المختلين؟!

كم يستغرق إطلاق الرصاصة حتى تخترق البدن، والسيف حين يضرب الأعماق؟!

دقائق.. لحظات.. ساعات أو لنقل شهورًا!!

لكن التعافي من كل هذا يحتاج أعوامًا وربما دهورًا..

إصابة النفس أشد وأمر..

الكذب.. الخيانة.. الوجع.. لحظات نسقط بعدها، لكن نحتاج عمرًا وجهدًا ومساعدة.. معونات وقروضًا.. بكاء وجوعًا وصبرًا لنتعافى..

هذا إن حقًّا تعافينا!!

التوى كاحلها في لحظة.. لحظة وربما ثوانٍ، كنا نمشي فيها في سلام وغفلة، لكن بقيت تتألم أسابيع، ذهبت بها فيها إلى أكثر من طبيب، وأجرينا فيها أكثر من فحص، واشترينا أكثر من دواء!!

لماذا تحدث الآلام والفواجع في لحظة، ويستغرق الشفاء شهورًا وربما سنوات؟!

لله في ذلك حكمة لا ندركها!!

ألنعلم أننا أضعف من ورقة شجر في ريح خريف أحمق؟!

أو لنتعلم دروسًا ما سوى الألم يعلمنا إياها؟!

أم لندرك أننا نسقط وحدنا، لكن أبدًا لا نشفى إلا بوجود يد تساعدنا، وكف تمسح على رأس أوجاعنا وتعبر بنا رحلة التعافي؟!

هذا إن حقًّا شفينا!!

الألم يحدث في لحظة، لكن الشفاء منه قد يحتاج دهرًا..

حقيقة كلما نسيناها سقطنا في الألم من جديد..

تتألم وحدك، لكن غالبًا لا تشفى إلا بحب ورفيق!!

كنت معها حتى أصبحت تخطو وحدها، ويوم خرجنا دون عكاز ضممتها إلى صدري قائلًا:

ـ في السقطة القادمة لي أو لك لن يكون أحدنا وحيدًا، فهل تقبلين الزواج بي؟!

***

حين أعلنت النبأ على مائدة الغداء سكت العطار ولم يقل حرفًا، اكتفت أمي بنظرة خاطفة ألقتها على وجهه..

بعد صمت طال قال ساخرًا:

ـ في عام واحد؟ ترحلان واحدًا تلو الآخر!!

في حزم أجابت أمي:

ـ تحيا معنا هنا.. وإلا لا زواج!!

لم أدعها تكمل وقلت في صدق:

ـ لن أترككما.. وديدة تحيا معنا هنا.. لن أغيب عنك أو عن أمي حتى النهاية.. عهدًا يحاسبني ربي عليه..

غابت أمي في غرفتها.. لم أتنبه أبدًا إلى ذاك المارد الذي خرج من جوف أمي..

الصامت الهادئ دومًا يُنسى..

من لا يصرخ أو يشكو ننساه، وإن كان يتمزق..

دخلت غرفتها لأجدها على سجادة صلاتها تتمتم ببعض الدعوات..

انحنيت على الأرض جالسًا إلى جوارها وقلت مازحًا:

ـ ألا تباركين؟! سأبقى معك كما تريدين..

لم تجب.. أمسكت بكفها أقبله في حب وقلت:

ـ أما زلت تشكين في وديدة؟ أحقًّا تظنين أن ذاك العناق فيه شيء؟!

قبل أن تجيب أكملت:

ـ وإن كان ثمة شك صغير هل كنت أتزوجها؟! أمي.. هل تسمعينني؟!

دمعة بعيدة صغيرة في زاوية عينها آلمتني كثيرًا..

دمعة صغيرة كأنها فيضان ماء عذب نقي، غسل وجلى سحبًا كانت تختفي خلفها الشكوك، همست أمي:

ـ وديدة طيبة وأنا أحبها.. بارك الله لكما..

أمسكت كلتا كفيها بين يدي وقبلتهما كثيرًا، نظرت إليها قائلًا:

ـ أخبريني بربك.. أستحلفك بمن تصلين له كل يوم ماذا فعل أبي؟!

انتفضت أمي كأنها ما توقعت أن أسألها يومًا، عدت أكرر السؤال، لكنها بإحدى كفيها مسحت على شعري، وقالت في سكون:

ـ ما كل ما نُسأل عنه يُجاب عليه..

لا تفسد فرحتك.. أستحلفك بالله أن تدع فرحة واحدة في هذا البيت تكتمل دون حسرة أو ألم!!

***

هل تعافى أبي من فراق ابنته؟!

ظننت هذا.. ظننته حين عاد يمازح عملاءه ويضحك مع وديدة ويشاركها الرأي في تجهيزات الزفاف وشراء لوازمه..

لعب دور الأب معها ببراعة.. فاطمة أيضًا كانت تحادثنا من وقت إلى آخر معلنة أنها ستحاول الحضور، وكلما تحدثت في هذا الشأن أدركت أن أبي لم يشفَ بعد..

تارة كانت عيناه تلمعان يخبرها أنه يعد الليالي، وتارة ينكس رأسه ومغمضًا عينيه في ألم..

في مرة سألني ما الذي تحتاجه لتعود؟!

قال كأنه يبكي:

- ثمن تذكرة؟! لا تجد مكانًا تقيم فيه؟!

ماذا تحتاج لتعود؟!

أذكر أني يومها وفي طريقي إلى لقاء وديدة حادثت فؤاد..

دعوته إلى حفل زفافي، أخبرني أن ظروف عمله قد لا تسمح رجوته أن يترك فاطمة تحضر..

أخبرته أني سأرسل لها تذكرة الطيران، وأن بإمكانها أن تقيم في غرفتي وسأبقى مع وديدة في بيتها، أو ربما نسافر إلى البحر الأحمر..

رجوته أن يرحم شوق أب.. ألا يحرم أخًا من وجود شقيقته الوحيدة يوم زفافه..

تنهد فؤاد بعد لحظات من الصمت قال:

ـ هي حامل.. أخاف عليها وعلى جنينها من السفر.. من يهتم بهما؟!

يهتم بهما من اهتم بها منذ مولدها..

يهتم بها ويحملها من يذوب شوقًا إليها، يخاف عليها ويفتديها بعجزه وروحه، يهتم بها من هي قطعة من روحه وبعض من عمره..

أصبح الغريب زوجًا مسيطرًا، وأصبحت فاطمة مثله غريبة لا تملك أمر نفسها..

قبل أن أغلق الخط قلت:

ـ يحاسبك الله يا فؤاد.. يحاسبك حسابًا عسيرًا، لا تحرم الرجل من زيارتها.. نكاد نفقده، وإن بقي جسده معنا!!

***

حين تقف على حافة الأمور لا ترى سوى موضع قدمك، بينما إن وقفت في المنتصف رأيت من يقفون على الحواف، وأيضًا من هم إلى جوارك..

لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.. كنت على حافة العشق أقف، وأبي على حافة الشوق والفراق يناضل، حتى أمي على حافة الغضب المكتوم منذ زمن تقف..

لهذا لا يفهم أحدنا الآخر، وإن رآه وأحبه وعاشره!!

حين أنهينا جميع الاستعدادات وجاءت السيارة التي تحمل غرفة

النوم الجديدة، وقف العطار يرقب العاملين يُخرجون الأثاث القديم..

سعيد بخزانة ملابس كبيرة جديدة، ومرآة منقوشة، وفراش جديد وثير سيضم جسد من أحبها إلى جسدي..

لكن الأب كان يرى شيئًا آخر من موضعه..

يرى فراش ابنته يُطوى وتحمل ألواحه الخشبية خارج البيت..

كأن فاطمة ما غادرت قبل اليوم.. أو فلنقل كأنه ما أدرك أنها غريبة، وأن أخرى تحل مكانها..

رأيت وجهه الممتعض.. شفاهه المرتعشة، لكن مَن على الحواف يقفون لا يفهمون من مشاعر سواهم شيئًا!!

حين انحنى أحدهم ليلتقط الوسادة الموضوعة على فراش فاطمة صاح يخبره ألا يمسها، أفقت على صوت صرخته، ركضت أحمل الوسادة ومنحته إياها..

كان يقاوم الانهيار وينظر في خوف إلى أمي، لا يريدها أن تُسمعه أحد جملها التي لا أفهم قسوتها..

ضممت العطار إلى صدري وقلت:

ـ فاطمة أول من سينام على فراشنا.. هي آتية.. ثلاثة أيام وتكون بيننا..

استسلم لعناقي قائلًا:

ـ وبعدهن سبع ليال وتغيب من جديد ليعود الألم أقوى.. لا أحد

يفهم.. لا أحد يفهم أبدًا!!!

المشاعر.. المشاعر الجامحة - سيدي - وحدها أم الكبائر إن لم تكن وسطا!

لا تظن رأسك يخطط.. لا تعتقد ذكاءك يرسم..

خلف كل ذكاء ووراء كل رأس، هناك دومًا طوفان حب، أو إعصار غضب، أو رياح يأس..

هناك دومًا «مشاعر»!!

***

حين أطلت من خلف بوابة المطار كانت هناك ست أعين تنظر نحوها، وكنت أرقب وجه أبي وحده!!

ركضت أمي قدر استطاعتها نحوها، ضمتها وعيون فاطمة تنظر إلى وجه أبي، كانت تتوقع أن يكون أول من يأخذها إلى صدره..

بقي ناظرًا إليها من خلف شبح دمعة كأنه يستجمع ملامحها.. في عينيه ألم عميق وعتاب جلي..

غادرت ذراعي أمي واتجهت إلى وديدة في عناق سريع تبادلتا فيه بعض المباركات..

لم أتقدم نحوها كأني أترك لها قرار من الآتي في العناق..

نظرة خاطفة سريعة تبادلتها مع أبي وهمست:

- رجائي..

لم أستطع.. عانقتها.. يفصلها عني شيء لا أعرفه..

رائحة فؤاد.. نسائم غياب.. أطياف قسوة.. لا أعلم لكنها حبيبتي.. رفيقة الطفولة والصبا..

شريكة القصص والفراش..

في هدوء استدارت نحو العطار.. وجميعنا ننتظر.. تحشرج صوتها وسقطت دمعاتها قائلة:

ـ ما عدت تشتاق لي!!

تجول بعينيه على كل قطعة فيها..

وقفت عيناه على بطنها المتكور أمامها، وعادت تهمس كأنها ما عادت تحتمل:

ـ بابا..

أطبق الصمت على صدورنا جميعًا حين قالتها..

انخلع قناع العطار وسقطت دمعاته ووجدناها بين ذراعيه تردد كلمة صغيرة..

كلمة لا تقال في العمر بأكمله إلا لشخص واحد قد يستحقها وقد لا يفعل.. يشعر بها أو لا يشعر..

«بابا» كلمة قد تنير عمر الطرفين، وقد تمر عابرة حتى يرحل من يقولها أو من تُقال له..

قلائل جدًّا من تصبح هذه الكلمة سيدهم وسلطانهم..

قلائل يخضعون لها عبيدًا تعبث بكيانهم كيف تشاء، والعطار كان سيدًا في وفائه لعبوديتها!!

***

حتى الشمس في الصباح التالي شعرنا بها تغيب عن البلاد بأكملها وتسكن بيتنا..

تتدفأ بفاطمة.. نشحن من وجودها نورًا وحرارة..

الإفطار كان له طعم آخر..

أقراص الفلافل والله كدت أراها ترقص في الصحن.. حبات الفول السمراء وقطع الخبز وحبات البيض البرتقالية تزغرد في فرح..

عودة الغائب!! اكتمال العدد.. تجمع الأهل..

ما السعادة سوى هذا؟!

نامت فاطمة على فراش زوجيتي إلى جواري، وكلما تقلبت في فراشي ورأت عيناي بطنها فرحت وتألمت..

ستصبح أمًّا وأصبح خالًا، لكن مع وقف التنفيذ..

سأصبح خالًا عن بعد.. طفل يولد بعيدًا، يحضر ويغيب مثلها زائرًا.. لكن يكفي أنها هنا..

السعادة لحظات لا يجب أبدًا أن نفتش فيها، وإلا وجدنا شوائب تغتال روحها وتشوه ملامحها..

إن جاءت السعادة اقتحمها.. لا تبحث في تفاصيلها!!

في نهاية إفطارنا صاحت وديدة في عفويتها تقول:

ـ فاطمة.. هل تذهبين معنا إلى السينما ليلًا؟!

نظر أبي إليها حتى شعرت به يكاد يخنقها..

لا يريد لابنته أن تغادره..

أفهم شعوره.. أفهم أننا حين ندرك أن من تجمعنا بهم ساعات أو أيام، لا نقبل انشغالهم بسوانا لحظة..

ابتسمت فاطمة ولمعت عيناها، سكتّ أمنحها الفرصة أن تخبر وديدة أنها لن تغادر أمي أو العطار من أجل فيلم سينما.. لكنها قالت:

ـ لا مانع لكن أستأذن فؤاد أولًا!!

ذاك الحجر الأول الذي فقأت به فاطمة عين أبي، الذي ما سافرت إلا بعد أن كف النظر!!

تعلل ببعض الصداع طالبًا مني التوجه إلى دكان العطارة وحدي..

كبرياؤه تحول دون أن يعترف أنه لا يريد أن يبرح البيت بعد عودة سيدته..

ساعدته كثيرًا حين أخبرته أنه بحاجة إلى إجازة يقضيها في البيت، متابعًا وصول مشترواتنا، خاصة أنه سيذهب إلى العطارة وحده بعد الزفاف، حيث أسافر مع وديدة لقضاء أسبوع العسل..

تنهد موافقًا كأني أزحت عن كبريائه جبلًا كبيرًا..

حين عدت في المساء مبكرًا قدر استطاعتي لم أجد فاطمة في البيت..

وديدة كانت هناك تجلس مع العطار وأمي.. وجهه شاحب لكنه يحاول أن يبتسم..

أين ذهبت؟ ولم تركته؟!

في هدوء قالت وديدة:

ـ رفض فؤاد فكرة السينما، وطلب منها الذهاب إلى أمه للزيارة..

تمتمت أمي بكلمات صغيرة تشرح أن ما طلبه هو «الأصول»، وما رفضه أيضًا حقه!!

حين دخلت وديدة لتصلح ثيابها، وقبل أن نخرج إلى السينما، نهضت أمي تعد كوب شاي..

نظرت إليه طويلًا، لم أستطع أن أمنع نفسي من قول:

ـ حزين لأنها ذهبت إليهم؟!

لم يرفع عينيه، بل قال في هدوء:

ـ لم تعد ولدي.. أصبحت صديقي يا رجائي.. نعم أنا حزين لحضورها ربما أكثر من الغياب..

كأنها جاءت تؤدي واجبًا.. حتى عناقها يختلف.. لا تخرج من هذا البيت أبدًا حتى أموت..

هل تعدني؟!

رفع عينيه ينتظر الوعد ورأيت دمعة تسقط على شعيرات لحيته..

أمسكت كفه أقبلها في حنان، عاهدته بالله العلي العظيم أن أبقى وزوجتي وأبنائي في هذا البيت حتى الممات..

حين حان موعد السينما دخلت إلى غرفتي، أخرجت من جيبي قلمًا أكتب به الفواتير، ثم التقطت ورقة صغيرة كتبت عليها «إن الله الخالق يستحيي أن يعذب شيبة في النار، فلا تعذبي أباكِ بالقسوة على الأرض»!!

وضعت الورقة بعد أن طويتها على الفراش، خرجت إلى وديدة وبداخلي عهد تتشكل ملامحه..

عاهدت الله ألا أدع قلبي يغرق في عشق امرأة، وإن كانت ابنتي..

لا شيء يذل كما يفعل الحب!!

***

ظننت تلك الكلمات التي تركتها لها تجعلها تراجع كلماتها.. تسترجع ذكرياتها، تستنفر حنانها، لكن قاتل الله طيب الظنون حين نعبث بها في الحقائق..

على مائدة إفطار الصباح التالي كنا نجلس ثلاثتنا ننتظر خروج فاطمة..

لا أحد منا يمد أصابعه نحو قطعة خبز..

عينا العطار ترجوانا ألا نفعل..

أقبلت فاطمة لتسحب أحد المقاعد، نظرت إليّ شذرًا، قبل أن تجلس عاودت الوقوف وانطلقت تصيح كالمجانين:

ـ من تظنون أنفسكم؟!

ارتفعت أعيننا جميعًا إليها، ونظرت نحوي تصيح:

ـ من أنت لتتهمني بالقسوة؟! ماذا تظن شعوري وأنا أرى غرفتي التي اقتسمتها معك تتغير ملامحها وتُمحى مني آثارها؟!

كأنكم تخبرونني أن هذا البيت ما عاد لي فيه مكان!!

لم تعد رجائي، بل أصبحت زوج وديدة التي تكرهني لأني أنام على فراشها قبلها..

سكتت لحظة وأكملت:

ـ فراشها؟ غرفتها.. بيتها وأنتِ؟!

كانت تنظر إلى أمي في قسوة وأكملت:

ـ لم تسأليني عن حالي؟ لم تسأليني أبدًا عن حياتي.. شعوري.. تفاصيلي.. منذ جئت وأنت لا تتحدثين سوى عن حفيد قادم.. عن ملابس.. عن أطعمة.. رضاعة.. لم أعد ابنتك، بل ما كنت يومًا ابنتك، ولا كنت يومًا معنا.. الأمومة ليست طعامًا ولا منزلًا نظيفًا أو ثيابًا مغسولة.. الأمومة حوار.. صداقة.. بيتكم حوائط باردة، لا صداقة فيها ولا حوار..

كانت تصيح ونحن في الصمت غارقون، استدارت نحو العطار الذي أوصيتها به..

نظرت إليه وفي عينيها دموع غاضبة، أكملت في صوت جريح محشرج..

ـ كل نظرة نظرتها إليّ منذ عودتي فيها لوم واتهام.. اتهام بالتقصير..

لوم على الغياب، على الحضور لمدة قصيرة.. إن حادثت فؤاد أراك تحزن، وإن أقبلت عليك لا ترضيك كلمة، ولا يكفيك ثناء..

حتى ولدك يرجوني الرحمة بك..

من أنتم؟! وماذا ترون فيّ غير هذا الوحش ناكر الإحسان؟!

نهضت إليها.. حاولت الإمساك بذراعها.. تمنيت لو أخبرها أننا نرى فيها العمر والذكريات.. نتحسس فيها الأمان والضحكات.. حاولت أن أخبرها أن غرفتها ما زالت لها، وإن جاءت أصطحب وديدة وتغادر، بل إني ما بقيت ولا ارتضيت أن أتزوج في غرفة، إلا إكرامًا لشيبة أبي وحرمان أمي.. حاولت أن أخبرها أن ما تراه في عيني أبي ليس لومًا ولا اتهامًا.. هو استجداء لحنانها، تسول لمحبتها..

أمها ليست بلهاء، ولم تنسَ ابنتها الموجودة من أجل حفيد لا تعرفه، وربما لن تعرفه..

أمها تحاول بعقلها ورأسها وإمكانياتها أن تشاركها فرحة الأمومة.. أن تحتفل معها وبها.. أن تكون شمعة أمل لا نعيق غراب..

حاولت.. حاولت أيها القاضي، لكن تُسمع الموتى ولا يسمعك

غاضب!!

نفضت ذراعي هازئة وركضت نحو غرفتها أو غرفتنا..

نظرت إلى وجه أبي ووجه أمي..

لا شيء سوى سحابة دهشة سوداء.. غمائم ألم وخيبات أكثر سوادًا..

حتى أبخرة أكواب الشاي انطفأت.. رائحة أقراص الفلافل وقطع البسطرمة النفاذة..

جميعه يقتله الموت والصمت..

رأيناها تخرج تسحب حقيبتها الصغيرة التي جاءت بها..

نظرنا إليها..

كانت تبكي متجهة نحو الباب..

أمي تحاول النهوض عن مقعدها، لكنها لا تستطيع..

ربما كانت تعلم أن الحديث مع فاطمة لا شيء فيه سوى مزيد من الألم..

ذهبت إليها وسألتها:

- إلى أين ؟!

قبل أن تغلق الباب قالت:

- إلى بيت أم فؤاد.. ما زالت غرفتنا فيه كما هي!

***

أيها القاضي:

لماذا يُعاقب القانون على السرقات والقتل فقط؟!

ليس هناك مادة واحدة فيه تُحرم أو تُجرم الجحود وكسر الخاطر؟!

ليس في قانونكم مادة واحدة تعاقب على القسوة ونكران الجميل!! حنث العهد وخيانة الوعد!!

قانونكم يعاقب على قتل الأجساد، وينسى وأد الأرواح واغتيال الرحمات والمشاعر.. وماذا؟! ماذا بعدها ننتظر ومدينتنا بأكملها أصبحت تضج بأجساد تخطو على الأرض بقلوب فارغة وصدور خاوية..

قانون لا يهتم بجرائم الروح أو الوجدان قانون ظالم، وأرضه سوداء وسكانها بوم وغربان!!

***

أيها القاضي..

يا من كتبت قرار إعدامي بروح راضية وقلب لا يعبأ.. هل تظن الألم في شنقي؟!

في مراقبة روحي تغادر الجسد قبل الموعد؟!

الألم الحقيقي مراقبة حب كبير يحتضر..

الألم الكبير أن تحاول معه.. أن تحقنه بترياق الذكريات ومحلول

الأمل ويأبى إلا أن يموت بين يديك أو بيديك!!

الألم هو هذه الخيبة..

ذاك الصرح الذي بنيته لتختبئ خلفه من فواجع الزمن، وتصبح الفجيعة سقوطه فوق رأسك!!

الفاجعة الكبرى حقًّا أن يصبح مُنقذك قاتلك، ومخبؤك وحده فضيحتك الكبرى!!

***

لماذا لم أركض خلفها؟!

لماذا لم أحتوِها بين ذراعيّ، وآخذها إلى صدري وإن كان رغمًا عنها؟

لماذا لم أخبرها أني أفهمها وأني أسأت التقدير حين كتبت تلك الكلمات!!

لها قصة غير قصتنا.. بداخلها ألم وغضب غاب عنا التفكير فيه لانشغالنا بما نريده منها، وما توقعناه من حضورها..

لا نعزف على آلة واحدة، فما الخطأ إن أعدنا صياغة اللحن، وإن خرج أقل بهاءً؟!

لكن إن ركضت وعانقت وتحدثت هل كانت لتقبل؟!

أظنها كانت تزداد عنادًا واقتناعًا بقسوتنا وأنانيتنا!!

ما منعني عنها وما كان سيمنعها عني مارد أسود له اسم رقيق..

هل أخبرك بأمر؟!

الكبرياء يجب أن تصبح على رأس الخطايا التي غاب عن القانون تجريمها والحساب عليها!!

***

جاءت فاطمة مع والديْ زوجها إلى حفل زفافي..

في عينيها نداء خافت، وفي أعيننا تجاهل كاذب..

انشغلت عن كل القصة بإطلالة وديدة.. بالرقص معها.. بالدفوف والغناء..

حاول العطار وحاولت سيدة، حاولنا جميعًا أن نكون عائلة وكنا..

بآخر ما بقي من كبرياء الأب سألها أن تذهب للمبيت معه، حين نام أنا وعروسي ليلتين في فندق القاعة التي أقيم فيها الزفاف..

قالها برجاء ألا ترده.. بشوق هزمه حتى أن والد فؤاد أرخى عينيه في ألم..

وديدة في ذراعي نريد الإسراع إلى غرفتنا، لكني نظرت إلى فاطمة ومددت كفي أمسك بكفها وأشد عليها، كأني أرجوها ألا ترده..

سيدة ابتسمت كأنها تحلم بليلتين في بيت واحد مع وحيدتها..

نظرنا جميعًا إلى سيدة القرار..

ابتسمت ابتسامة جريحة وبصوت ممزق قالت وهي تنظر إلى أم

زوجها:

- لن أترك ماما الليلة.. كانت مريضة، لكنها تحاملت على نفسها وجاءت..

رفعت أم فؤاد عينيها وقبل أن تنطق قال والدي ضاحكًا:

- لا يرضينا أن تتركي «ماما» وحدها..

استدار نحوي ووديدة ثم نظر إلى أمي قائلًا:

- يبدو يا سيدة أن علينا أن ننجب من جديد، فأولادنا ما عادوا لنا..

لم يدع فرصة لأي منا بالحديث..

وضع ذراع أمي في ذراعه ومضى..

لماذا تؤلمه فاطمة؟!

لماذا نؤلم من نحبهم ونعلم أنهم يحبوننا بهذه القسوة؟!

ليس جحودًا ولا نكرانًا، لكنه غباء قلب وعمى كبرياء..

أخذت زوجتي بعد وداع لا أذكر ملامحه واتجهنا إلى غرفتنا..

الأبناء أكذوبة كبرى يا سيادة القاضي..

أكذوبة لا نملك النجاة منها، ولا نتوقف أبدًا عن الانغماس فيها بكل ما لنا وقوتنا ومشاعرنا..

هكذا خلقنا الله، وإلا ما استمرت الحياة على الأرض بعد حواء وآدم!!

***

دخلنا غرفة الفندق لتخلع وديدة وأخلع ثيابي.. التحمنا في لقاء رائع غابت معه كل الأفكار والأسماء من رأسي ومن رأسها، أدركت أن للزواج متعة ربما لا تدوم، لكن الحصول عليها أيامًا أو شهورًا أمر يستحق جنون القرار وغباء تنفيذه..

حين كنت ألهث محاولًا استعادة أنفاسي على صدرها العاري، غابت وديدة في نوم عميق وأنفاسها تنتظم في سكون رائع..

هدأت وابتعدت برأسي قليلًا..

كيف أخبرها أني أريدها من جديد، وأني لا أريد أن أراها حاملًا كما رأيت شقيقتي؟

وإن كان لا بد من حدوث الحمل لا أريد فتاة مثل فاطمة ولا ذكرًا مثلي..

ذكر يرقب تكسر أبيه أمام حب أهوج يَسحق الهيبة ويقتل الكبرياء..

إن كان لا بد من أصبح أبًا يا وديدة فليكن ذكرًا..

النساء وحدها تضرب الرجال في مقتل..

أغمضت عيني في خجل من أفكاري وعفونة ذكوريتي وعدت أستند على نهديها لأغفو في أحلى وأبهى غفوة أسلمت لها عينيّ مدى الحياة!!

غفونا ونحن لا نعلم أن العطار مع زوجته لهما شأن آخر!!

***

أطلت عليك الحديث وكأني كلما أردت الاختصار أبت الحروف أن تصحبني إلى حبل المشنقة..

كم هو تعداد البشر على الأرض؟!

كم عددهم منذ هبطت حواء وزوجها إلى الأرض؟!

يقال إن عددهم مائة مليار نسمة..

ربما يتضاعف هذا العدد حين تأتي الساعة، إذن فلنقل مائتي مليار نسمة..

تخيل أيها القاضي أن يقف كل هؤلاء، كل بملامحه التي تختلف، ومعاصيه التي تختلف.. أحقًّا تختلف المعاصي؟!

يقول الأدباء إن جميع القصص لا تخرج عن الحب والزواج والفراق!!

قد تكون هي الحقيقة، لكن هناك دومًا ما يجعل كل قصة عن الأخرى تختلف..

قوة مشاعرك.. جبروت نقاط ضعفك.. ما صنعته عائلتك بك في طفولتك، يجعل لكل منا يوم الحشر قصة تختلف..

قد يعلم البشر ماذا فعل كل منا من معاصٍ وحسنات، لكن وحده أيها الحاكم..

وحده يعلم لماذا وتحت أي ضغط ولدت معاصينا وجرائمنا؟ وأظنه على هذا يحاسبنا؛ ولهذا دومًا تشملنا رحمته!!

يحاسبنا على قدراتنا لا أفعالنا!!

غادرنا وعروسي الفندق بعد ليلتين.. عدنا إلى بيت العطار، وعادت ابنته إلى زوجها بعد زيارة خاطفة..

لم يكن الوداع سيئًا، لكنه ما كان أبدًا يليق بكل ما خلفته فينا من حب وألم!!

وحدها أمي أعادت عليها أكثر من عشر مرات أن تعود للولادة..

«لا أحد مثل أمك يهتم بك وبجنينك.. لا أحد يا فاطمة وإن ظننتيه أمًّا»!!

الآن وأنا أستيعد تلك اللحظات أراه وداعًا مخزيًا ضمت فيه فاطمة أباها..

شعرت بها تحاول استعادته، حاول أن يُظهر بروده أو ربما كان حقًّا..

الآن بإمكاني أن أقول كان لأختي فينا وفي بيتنا رأي آخر..

رأي بعقلها الهندسي كونته..

رأي بلا مشاعر..

المشاعر الملتهبة تموت بسرعة أكبر من تلك الهادئة المنتظمة!!

شيء آخر بدأت أشعر به يدور في غرفة أمي وأبي..

لا أفهمه .. لا أعرفه، لكنه عن كل الأعوام السابقة كان يختلف..

شيء آخر على وجه العطار يتشكل كل صباح، ونحن في طريقنا إلى دكانته..

يحاول أن يدق بقدميه على الأرض كأنه يخبرني ويخبر الدنيا بأكملها أنه ما هُزم بعد أن تم ذبحه وإراقة دمه..

لم يمضِ شهران على زواجي إلا وأعلن العطار أن أمي حامل..

نعم.. أمي حامل!!

أعلنها على مائدة الإفطار، وأرخت أمي عينيها في خجل كبير..

استدرت أنظر إلى وديدة في جنون لأجدها تُطلق ضحكة صاخبة لا أفهمها..

عدت أنظر إليه كأني لا أصدق، بل لا أفهم..

بدا هادئًا وقال مخاطبًا وديدة:

ـ ألا تشاركين معنا أنتِ أيضًا؟!

ثلاثة أطفال في عام واحد!!

نهضت أمي عن الطاولة في استحياء ودق بقبضته ناهضًا يقول:

ـ هيا إلى العمل يا رجائي.. سنصبح عائلة كبيرة ونحتاج إلى مصروفات أكبر..

لم ينتظر ردًا أو كلمة، بل خرج من باب البيت إلى دكانته، بقيت

مذعورًا، مدت وديدة كفها تلمس كفي وتسألني ماذا بي؟!

اتسعت عيناي أكثر..

هل حقًّا تسأل؟!

ضحكت الصبية واعتدلت في مقعدها كأنها تضع عمامة الحكمة على رأسها، قائلة:

- ماما صغيرة وأبوك أيضًا، أظن مشاعرهما اشتعلت لوجود عروسين في المنزل.. لم أنت غاضب؟ هو شيء طيب..

سكتت لحظة وقالت في خجل «عقبالنا»!!

وديدة صغيرة.. وديدة لا تفهم..

لم أجبها بكلمة..

اتجهت إلى الكبيرة العاقلة.. إلى من كانت تعيدنا إلى رشدنا، وإذا بها فقدته..

طرقت على باب غرفتها ودخلت..

كانت تجلس على حافة فراشها، وللمرة الأولى أنظر إلى فراش أمي وأبي نظرة تختلف..

نظرة ماتت فيها تلك القدسية..

أعلم كيف أنجباني وأنجبا شقيقتي، لكن الأمر وأنا في هذا العمر يختلف..

رأتني وقالت في صوت مرتعش:

- لا أعلم ماذا أو كيف حدث؟!

ماذا أقول لها، أي كلمة تقال فيها تجريح، وما بها وما به من الألم والتجريح يكفي..

اقتربت منها ووضعت على رأسها قبلة وقلت:

- الحمل أمي بعد سن معينة خطر..

أبي ليس بكامل صحته.. نظلم طفلًا.. ونتحمل سخرية وأسئلة.. لماذا؟!

أنت تعلم الحقائق.. تدركها.. لكن دون شك حين يتلوها أحدهم على أذنيك تتألم، ربما تنكر للدفاع عن نفسك من خطأ تعلم أنك أتيته..

قالت في عصبية:

- لأنها إرادة الله.. لأنه حلال.. لأنه زوجي.. ألا يكفيك هذا؟

آه يا أمي.. آه يا حبيبتي..

ينخلع قلبي الآن وأنا أذكر تلك الكلمات..

لماذا لم أنحنِ وأضمها؟ لماذا لم أنثنِ راكعًا تحت قدميها وأقبل كفيها؟

لا ذنب لها.. هي امرأة من جيل إن قال لا رجموه، خاصة إن قالتها امرأة لزوجها!!

نظرت إليها واستدرت أغادر غرفتها، وفي برود قلت:

ـ مبروك يا .. يا أمي!!

***

لا حَدَث يعتبر خطأ..

الخطأ الكبير هو متى وأين يحدث!

الإنجاب ليس خطيئة لكنه في عمر كهذا خطأ..

ألا توجد بلاد تُحرم الإنجاب؟!

ليس كرهًا فيه، ولا نكاية في شعوبها، لكن لأن أرضهم لا تحتمل.. اقتصادهم لا يستطيع.. «متى وأين» وحدهما في بعض الأحيان يصبحان معيار الصواب والخطأ!!

كان العطار منتشيًا سعيدًا بنفسه طوال ذاك اليوم، حتى أنه حادث فاطمة وأخبرها كأنه ينتقم منها..

هل تعلم سيادة القاضي متى يصيبك الجنون اللحظي؟!

أكثر ما يجعلنا به نُصاب ليس الحب..

ما يحولنا إلى ثور أحمق ما يسمونه خيبة الأمل!!

***

في تلك الليلة تزينت وديدة وتعطرت..

التصقت بجسدي، وزعت قبلات كثيرة على جميع أنحائه..

كنت منهكًا، في صدري غصة، وفي أملي خيبة، لكن شعرت أنها تريدني، وأن صراعاتي وقصصي مع العطار ذنب لا يجب أن تحتمله..

ابتسمت ومسحت على وجهها، منحتها نفسي، وسمعتها تقول:

- هل تشعر بالغيرة؟!

فتحت عيني أنظر إليها وأكملت تسألني إن كنت أشعر بالغيرة من حمل أمي وهي بحمل جنين أحق وأولى..

ارتخى جسدي المشتعل قليلًا، وتهت في موج عينيها..

هل أخبرها أني لا أريد أطفالًا؟

هل أنبئها أن ما بي ليس غيرة بل هو خيبة أمل كبيرة؟

أمي في عيني مارد وقديس، فكيف أكتشف أنها بلا عقل أو إرادة؟

لكن حتى المارد له لحظات ضعف ينتصب بعدها أكثر قوة وشراسة!!

ضمتني إلى صدرها في قوة كأنها توقظني من جديد، وهمست في نهاية لقائنا:

- لا تقلق يا رجائي.. ستحمل وليدك قريبًا.. أثق فيك وفي نفسي!!

***

نهضت من جوار زوجتي بعد نومها متوجهًا للاستحمام، في طريقي إليه رفعت عيني إلى غرفة أبي وأرخيتها بسرعة في ألم..

أنت أبدًا لا تريد أن تتخيل رجلاَ يضاجع أمك، وإن كان أباك..

ليس في هذا العمر.. ليس في هذا الوقت، وليس أبدًا في وجود فؤاد ووديدة..

نظرت إلى وجهي في المرآة.. أنا غاضب؟ خائف؟! مشمئز؟!

نعم ربما كنت جميعهم معًا!!

العطار أتى حماقة كبيرة ..

لم يصل إلى سن الستين بعد.. إن أنجب ذكرًا أتوجه إلى الخدمة العسكرية..

أترك وديدة وحياني التي اعتدتها، وأمي التي كبلت نفسها بطفل صغير في عمر كهذا..

العطار أشعل في زوجتي رغبة الإنجاب، وترى أنها بها أولى..

وحده يخطئ ووحدي دومًا أدفع الثمن وفي صمت..

عَشق فاطمة بجنون فأصبح وأصبح بداخلي دومًا شعور بضآلة ما..

يريد أن ينجب فتجن عروسي وتختلف حياتي، وأعود مجندًا يتبع أوامر ويتلقى عقوبات..

أنا ضحية هذا العطار، وفي القريب أحمل رضيعًا على ذراعي، يظنونه ولدي، فأرفع رأسي قائلًا:

- بل أخي أو أختي!!

لماذا يجعل منا أضحوكة؟!

هل ينتقم من ابنته؟ هل يريد لها عوضًا؟ ولماذا أدفع وتدفع أمي الثمن؟!

كان واضحًا أن الأمر فرض عليها.. بل إن أمعنت التركيز وفكرت أكثر أستطيع أن أجزم أن أبي توقف عن معاشرتها زمنا، وإلا كانت لتصبح حبلى قبلها مرات ومرات!!

لهذا كان يأخذ كثيرًا من أعشابه معه في الأيام الماضية..

إنها حقيقة!! أبي عاد إلى جسد زوجته فقط حين أرادها أن تحمل منه جنينًا، غير عابئ بعمرها ولا قدرتها الصحية..

نظرت من جديد إلى المرآة.. الرجال لا يهمها سوى إثبات ذكوريتها ورجولتها، وأقرب طريق إليهم بل أسهل الطرق جميعها الفحولة والإخصاب!!

***

من أكون لأتحذلق بهذا الشكل؟!

طفل صامت لم يستنفروا فيه الكلمات ولا شجعوه على التعبير..

يومًا قالت فاطمة «أريد زوجًا لا جدار بيني وبينه.. أريد أطفالًا أتحدث معهم في كل شيء.. نحن مرضى يا رجائي»..

علمت أنها على حق.. الصمت قاتل كبير.. الصمت رحم مريض يولد فيه الصامتون!!

كل صامت إما أصبح مفكرًا أو مجنونًا!!

وكلاهما أمرٌ خطير!!

طفلك الصامت الهادئ الذي تفتخر به يومًا ينفجر شظايا ولهب، لا تعرف أبدًا ماذا تأتي أو على من تقضي!!

***

فاطمة تغيرت..

حادثتني باكية تنعت أبويها بالجنون.. ينجبون طفلًا آخر.. ضحية جديدة..

بكت تقول «أبواك لا علم لهما بشئون التربية»..

أخبرتني أن زوجها -أسْتَغفر الله العظيم- حين علم بالنبأ.. سألها ماذا يقول لأبويه!!

رغم غضبي أنا أيضًا إلا أني دافعت عنهما..

ما حدث ليس حرامًا لنستغفر عنه الله..

ما حدث ليس خطيئة لنخجل من إعلانها..

كلاهما راشدان، لهما كل الحق في صنع ما يحلو لهما..

لماذا ترى تربيتنا خاطئة؟

أيها القاضي:

نجاح التربية ليس أن يكبر الأبناء.. نجاحها سواؤهم، وليس فينا

أسوياء!!

الآن علمت أنها على حق، في تلك اللحظات كنت أعمى، واليوم أبصرت!!

تمنيت لو أخبرها أنها وحدها من أشعل فتيل جنون العطار، لكن ماذا لو كان ما حدث صدفة؟

كل ما فعله العطار أنه ضاجع أمي.. زوجته..

حقه.. الرجل لم يبلغ حتى الستين..

أن تصبح حاملًا ليس قراره أو قرارها.. هو قدر.. مشيئة!!

ومتى وكيف نحاسب البشر على أقدارهم؟!

«ستبقى أعمى وأصم يا رجائي.. أبدًا لن تتغير»..

قالت تلك الكلمات وأغلقت الخط المفتوح..

هكذا إذن تراني شقيقتي، ربما كانت على حق.. ليتني بقيت كما قالت..

يوم أبصرت وسمعت.. ماذا فعلت؟!

وضعت رأسي رهينة حبل المشنقة، وقلبي رهين وهم أحمق بأن يقرأ حاكمي رسالتي وهذياني!!

حين نبصر بعد طول عمى.. حين نسمع بعد طول صمم ..أبدًا لا نكون كمن عاش العمر سميعًا وبصيرًا!!

***

وحدها وديدة سعيدة..

لا أعلم لماذا.. لكنها سعيدة تمازح أمي.. تقترح أسماء وملابس وحلوى ليوم السبوع ولحظة الولادة..

العطار بعد شهور بدأ حماسه يخبو كأنه أفاق على ما لم يره..

ربما لنظرات الدهشة التي كان يراها في أعين من علموا بالنبأ!!

ربما لغضب أمي المكتوم.. ربما لذبولي وإثارتي قصة التجنيد.. أو ربما لانسحاب فاطمة التدريجي والملحوظ، أو لاتصال والد فؤاد ومباركته المصحوبة برنة السخرية والاستنكار!!

لا أعلم.. ماتت فرحة العطار وذابت نشوته..

كل ما يتدخل فيه الآخرون تتبدل ملامحه..

سألته أكثر من مرة أن يأخذ أمي لمتابعة الحمل لدى طبيب..

الحمل في الأربعين خطر، فكيف بالله عليك وهي على مشارف الخمسينيات؟!

رفض حتى مناقشة الأمر.. هي أيضًا رفضت الذهاب إلى طبيب، وما عادت تخرج من البيت..

كان واضحًا خجلها من نفسها ومن كل من حولها..

في الشهر السادس من الحمل، وحين أصبح بطنها منفوخًا صاحت وديدة بالخبر..

زوجتي حبلى!!

آه يا سيادة القاضي..

امرأتان في جوف كل منهما روح..

ورجلان ماتت فيهما الروح حين أفاقا على النبأ رغم مسئوليتهما عنه..

أفاقا على مخاوف لا حصر لها، لكن يجب أن يبتسما ويتظاهرا بالرضا والسرور!!

***

حادثني فؤاد ذات مساء ليخبرني أن فاطمة أنجبت..

كالجيران.. كالرفقاء بل كالغرباء..

حين فتحت الخط قال: «رجائي.. فاطمة أنجبت هذا الصباح»..

سَكَتُّ لحظة..

هذا الصباح!!

حين استعدت نفسي طلبت منه محادثة أختي، أو ربما طلبت منه الأذن..

هكذا تصبح النساء عن أهلهن غريبات..

سكت لحظات كأنه يفكر، أو ربما كان بدوره يستأذنها..

جاءني صوتها هادئًا متعبًا. بكل ما حاولت جمعه من ذكريات وحب

قلت:

- مبروك يا حبيبتي.. هل حَادثتِ أبويكِ؟!

غاضبة شقيقتي من العطار، لكن أإلى هذا الحد؟!

رجوتها أن تحادثه.. أخبرتها أنه ليس على ما يرام.. مهموم.. متعب وتائه أبونا يا فاطمة، هو شيخ كبير..

قالت في تهكم شديد:

- شيخ كبير؟! الرجل سيصبح لديه وليد أصغر من حفيده..

ابتلعت الكلمات وعدت أقول:

- هل أستحلفك بالله أن تُطلقي على ولدك اسم أبيك؟!

كالقذيفة صاحت:

- أسميه صابر؟! ووحدنا الصابرون على أبيك وجنونه.. فلتسمِّ أنت ولدك إن شئت..

ماذا أقول لها؟!

العطار يريد منها مبادرة حب.. ميثاق سلام.. نسائم رحمة..

وحدها حب عمره.. تفاحة عينيه..

- حسنًا يا فاطمة، لا تُطلقي على الألماني الصغير اسم صابر، لكن أخبريه كذبًا أنك تريدين..

في برود قلوب الأبناء جميعهم قالت:

- أخبر أباك أني وضعت هذا الصباح ذكرًا، وسأسميه علي تيمنًا باسم والد فؤاد.. أما أمي فأخشى أن أحادثها لأنها لا بد وأنها من الحمل متعبة!!

أبواك ذبحاني وقطعا بجنونهما وصبيانيتهما رأسي أمام زوجي وعائلته!!

***

حين أتت أمي آلام المخاض رفضت الذهاب إلى المستشفى، حتى والدي لم يستجب أبدًا لتوسلي له:

- امرأة كبيرة.. لم تذهب لمتابعة حملها مرة.. جَرَّعتها أعشابًا ومقويات، وحده الإله يعلم تأثيرها..

في سكون وضع رأسه على عصاه ثم قال:

- «لن أدع أحدًا يسخر منها أو مني.. سيدة قوية وستكون بخير»..

لم أسمع من أمي صرخة واحدة، وكلما خرجت وديدة من غرفتها بحثًا عن طلب تحضره للقابلة العجوز التي استدعاها أبي وجدت وجهها يزداد اصفرارًا وامتقاعًا..

- «هل أمي بخير»؟!

في كل مرة كانت تهرول إلى غرفتها قائلة:

- «بخير يا رجائي لكنها تكتم وجعها.. لم أرَ أحدًا مثلها يفعل»..

تكتم وجعك لأنك لا تريد أن يراك أحد تتألم..

تكتم وجعك لأنك لا تريد أن يسخر منك أحد..

الكتمان يصبح أحيانًا أكبر جريمة ترتكبها في حق نفسك وروحك..

حين دخل العطار إلى غرفته ليصلي ويدعو لها وقفت على باب غرفتها المغلق أبكي، وصحت دون وعي:

- اصرخي يا أمي.. تألمي.. أحيانًا لا يقتلنا الوجع لكن كتمانه يفعل!!

لم تصرخ سيدة ولم تبكِ، خرجت وديدة هذه المرة تحمل في يدها رضيعًا يبكي بشدة كأنه من كتمان أمه وجبروت خوفها يستغيث..

مدت يدها نحوي بالرضيع، لم أنظر إليه..

أسرعت إلى أمي لأجدها مغمضة العينين، صحت أسأل القابلة: «ماتت أمي»؟!

فتحت سيدة عينيها في تثاقل وأشارت بكفها إليّ تدعوني إليها..

قبلت كفها كثيرًا، وقالت في إعياء:

- لا تخجل منه.. أخوك يا رجائي!!

نجت أمي بفضل الله، لكن لهفتي إلى رؤيته ميتة، فرحتي بوجوده مبتورة الرأس..

سمعت صوت بكاء الرضيع محمولًا على ذراعي أبيه يقف خلفي ويهمس بعبارات الحمد..

سألها العطار ماذا تريد أن تسميه!!

في إعياء رأينا معًا دموعًا سخية تغادر مقلتيها، رأيته يتقدم نحوها وينثني أسفل فراشها، ووليدهما على ذراعيه، قائلًا:

- ورأس هذا الطاهر الذي غادر للتو جوفك الطاهر أرجوك.. سامحيني يا سيدة رأسي.. سامحيني!!

وضعه على بطنها ومدت كفها تتحسسه، ثم أشاحت بوجهها هامسة:

- أسميه الطيب، فكل ما يأتي به الله طيب، وإن رأيناه شرًّا مستطيرًا..

يقال إن لكل مولود من اسمه نصيبًا..

أحقٌّ ما يقولون؟!

***

جلس على طاولة البيت ووقفت أمامه كجلاد أقول:

- ماذا حدث؟ ما القصة؟ من حقي أن أعلم لماذا تطلب من أمي الصفح؟ وعن ماذا؟!

لماذا يا أبي؟ أرجوك أخبرني!!

رفع عينيه واتكأ على عكازه ناهضًا في ألم وقال:

- ما أقسى أن يحاسبك ولدك.. ما أقسى أن تنظر إليه وتخشى ألا يعذر أو يغفر..

قالها ثم مضى في سكون إلى غرفة سيدته، وأغلق عليهما الباب!!

لماذا نطرق الأبواب المغلقة؟ هناك أبواب إن فتحناها اجتاحنا الطوفان الراقد خلفها..

أي متعة؟! أي قوة في أن تكشف ما ستره الله ودارته الأيام؟!

***

في الصباح التالي ونحن في طريقنا إلى دكانة العطارة عرج بي أبي إلى ساحة مسجد سنقر..

جلسنا على إحدى تلك الزوايا الرخامية في هدوء..

لم أعترض فأنا أعلم أنه مثلي متعب..

وليده لم يكف عن البكاء، ولم تكف وديدة عن الدخول والخروج إلى أمي لمساعدتها، والخوف يسكن رأسينا معًا..

ماذا سيحدث حين يأتي رضيعنا؟!

في إحدى المرات التي عادت فيها من غرفة أمي أخبرتني أنه ربما كان من الأفضل أن تنام وأمي في غرفة، وأنا مع العطار في الغرفة الأخرى..

قالت مازحة ربما نفعل حتى يكبر الأطفال قليلًا..

كنت أتأرجح بين النوم واليقظة، فلم أجبها، لكن شق صدري سكين..

تنقلب الحياة رأسًا على عقب بمولد طفل، فكيف إذن بمولد اثنين؟!

جلسنا على حافة السور ننظر إلى جميع الوافدين إلى المسجد، وسمعته يقول:

ـ كل من يدخل هذا المكان بداخله رجاء، وأنت يا ولدي كل رجائي.. أظنه وقت الاعتراف..

كان رأسه مُنكسًا.. كلماته بطيئة، لكن صوته سحرني..

صوت مجهد متعب كأن خطوط دخان حرائق يخرج من بين شفتيه، وأكمل:

ـ هل تعلم أنه كان لديك خالة؟!

لم أفهم ما تعنيه الكلمات، وسألته:

ـ أليست أمي وحيدة أبويها؟!

شعرت بتدفق الدخان يتزايد، كأنه لم يسمع سؤالي أكمل من بين تدفق حرائقه:

ـ عائلتي بسيطة.. والدي كان عاملًا في إحدى قرى الشرقية..

حين مرض شقيقي الصغير رأيته يبكي لعجزه عن حمله إلى مستشفى أو شراء الدواء.. كنت عندها صبيًا يافعًا..

خرجت أتجول في أزقة قريتنا أبحث عن باب أطرقه، عَلّه يمنحني بضعة قروش لنجمع ثمن الدواء..

كل من في القرية مثلنا فقراء.. صوت أنينه كان يصم أذني، صوت نحيب أمي ودمعات أبي يصيبني بالجنون..

وقفت بي أقدامي على باب عطارة الصدِّيق..

رجل طيب له لحية بيضاء كأمواج الأمل، صوته هادئ كزحف نور الصباح..

رآني أبكي في صمت، أشار لي بكفه لأتقدم.. حين فعلت أخرج من جيب جلبابه حلوى ومد كفه الطيب يمنحني بعضًا منها، سألني ماذا يبكيني؟!

تنهد العطار محدقًا في كفه الغافي على عكازه..

كأنه يرى وجه الرجل أضاف:

- ذهب معي إلى بيتنا.. سمع أنين شقيقي وبكاء أمي.. تكفل بعلاجه حتى غادر الحياة..

أصبح بعد أبي لي أبًا، عملت في عطارته، وبعد حين اصطحبني إلى بيته.. رأيت أمك وشقيقتها الصغرى التي أحبتني في صمت!!

لم يبح أحدنا بالحب، لكن رغم طفولتنا جميعًا أتقنا قوانين لعبة الحب..

أغدق الصديق عليَّ العطاء.. ماذا أقول لك؟

حين كبرنا أخبرني أنه يرغب بتزويجي من سيدة..

فقير مثلي لا يملك سوى صباه وهواه، أين له أن يسكن سوى في بيت الشيخ الكبير؟

أنجبنا فاطمة، وأصبحت بعد سيد البيت رجل البيت..

عملت معه بإخلاص يشهد عليه الخالق.. حملته على كتفي حين مرض..

تناوبنا أنا وخالتك على تمريضه لانشغال أمك بشئون العطارة وفاطمة وبدايات حملها بك..

حين مات الصدِّيق على ذراعي تحول كل شيء في لحظة، كأنه اصطحب معه الأمان والسلام..

انطفأ قنديل المحبة في البيت..

سقطت سيدة في آلام حملها وفقدها لأبيها، وانفجرت أختها في مشاجرات لا أفهمها..

تارة تتهمني بالسرقة، وتارة تتهم سيدة بالتواطؤ معي..

أخرجت لها أوراق العطارة..

أقسمت لها على مصاحف البيت جميعًا، لا شيء يرضيها أبدًا، حتى كانت تلك الليلة التي نامت فيها أمك وفاطمة، حين عودتي من العطارة طلبت مني خالتك أن نتحادث في غرفتها بأمر ما..

أشفق عليها، وأعلم أو هكذا ظننت، أن ما بها توابع حب قديم وألم فقد لوالدها، وأبوها صاحب فضل كبير..

أغلقت الباب خلفها وبكت تصيح تخبرني أنها تعلم أني أسرقها.. أسرق مال أبيها كما سرقت ابنته الكبيرة..

تصيح وأتمنى لو تخفض صوتها، فأمك مجهدة، ونوم فاطمة قليل..

أخبرتها أن تذهب معي إلى العطارة بدلًا من أختها، تتابع كل ما يدخل إلينا، بل لتكون مسئولة عن الحسابات..

كانت تصيح كالمجنونة، نهضت أمسك بها..

أخبرتها أني أحبها، ولا أريدها أبدًا أن تكتوي بشكوكها..

رمت بنفسها على صدري، أخذت أربت على ظهرها، سمعتها تخبرني أنها تحبني.. أخبرتني أنها أحبتني من اللحظة الأولى، وأنها ظنت أني أبادلها العشق..

قالت إنها فوجئت بحبي لسيدة، وأنها إكرامًا لأبيها لم تقل شيئًا حين طلب تزويجي لها..

والله يا ولدي لا أعلم ما حدث، أو كيف حدث..

اختلطت أنفاسها بدموعها، وكلما هممت بإبعادها عن صدري التصقت بي أكثر..

هل كانت مجنونة؟ عشت معهم أعوامًا ولم ألحظ عليها جنونًا..

«أنا أحبك أكثر منها.. طلقها يا صابر وتزوجني.. أباح الله ذلك، فلم تحرمني منك وتحرّم ما أباحه ربك»؟

كل شيء حدث في لحظات، أقسم أني لا أذكر سوى أنها على الفراش أصبحت..

ورأس فاطمة لا أعلم إن كانت وحدها من جرني إليه أم أني مَن ذهب..

لا أذكر سوى بكاء سيدة وفاطمة على ذراعيها؟ وهي تسأل ماذا يدور؟!

كأنها تدفع عن نفسها التهمة صاحت تخبرها أني أحبها، وأن بيننا قصة قديمة..

ركضت أمسك بها، لكنها غادرت البيت..

حين حاولت اللحاق بها منعتني أمك..

لا ألومها، لها كل الحق، أختها غادرت في منتصف الليل ترتدي ثياب نومها في قرية صغيرة..

هي ابنة الصديق.. والله لم أخنه.. والله لم أخنه..

أجهش العطار في بكاء مرير، نظرت إليه في ذهول، وقبل أن أسأل أكمل:

- بعد ساعات أحضروا جثمانها.. ألقت بنفسها أمام القطار.. ربما لم تقتل نفسها.. ربما كانت تائهة خَجْلى من افترائها.. لكنها ماتت..

أصبحت الحياة في البيت جحيمًا لا يطاق.. بل أكاد أقسم أن الجحيم بعينه أهون وأرحم..

بعد شهور أعلنت أمك القرار..

نغلق الدكان ونغادر القرية، وأبقى زوجها.. لكن موصومًا بالخيانة إلى الأبد..

هكذا حضرنا إلى مصر لنتوه في زحامها ونذوب في أرجائها..

نظر إلى وجهي الذي ماتت فيه الروح، وقال:

ـ هل تصدقني؟!

من بين دمعاتي سألته عن اسم خالتي..

أرخى رأسه وقال:

ـ اسمها رجاء..

شهقت في جنون، وقبل أن أسأل قال العطار:

ـ يبدو أن عقاب أمك كان أن تحرمني حتى حق النسيان!!

لا شيء الآن في رأسي سوى إيماني أن الحياة دومًا تكرر دوراتها.. وإن سقتك يومًا كأسًا ستعيد سقياه ذاته لأجيال تأتي بعدك..

عطارة صابر ودخول وديدة إليها..

يا سيادة القاضي:

لا أعلم إن كان أبي من خيانة أمي حقًّا بريئًا.. أو كان حقًّا أحب خالتي وتزوج أمي فقط إرضاءً لأبيها.. لا أعلم.. الرجل مات بعد اعترافه لي بشهور..

لا أعلم إن كانت تلك الخالة حقًّا مجنونة أم أن قصة ما جمعتها بالعطار..

لا أحد يعلم الحقائق كاملة سوى الله..

ما أعلمه جيدًا وأدركه بوضوح..

ننسى خطايانا، وننسى جرائمنا، لكن الأيام لا تنسى، والدائرة دومًا تدور!!

***

في ليال كثيرة بعد ذاك الصباح الأسود تمنيت لو أني أدخل غرفة أمي، أمسح على رأسها وأخبرها أني أعرف سر عذابها ودعائها..

تمنيت لو أني أطلب منها أن تطلق سراح بكائها وخوفها وسخطها على أبي.. على خالتي، بل على الحياة بأكملها.. لكن أبدًا لم أستطع..

العطار سقط مريضًا، في كل مرة يختلي بي يقسم عليّ ألا أخبر أمي بما عرفت..

أخذ عليّ عهدًا وميثاقًا ألا أخبرها أبدًا حيًّا كان هو أو ميتًا..

«تكسرها إن عرفت.. تكسر فيها ما أضاعت عمرها وراحتها وأنوثتها ثمنًا لدفنه في صدرها.. لا تكسرها يا رجائي.. تقتلها إن فعلت»!!

شهور قليلة ورحل العطار في هدوء، لم يكن عجوزًا ولا به داء مميت، لكن سكنه وهن وأفاض روحه شوقًا وانكسارًا، وأحدهما يكفي لإبادة أوطان..

بكته وديدة.. بكته كما رأيتها تبكي أباها.. بكته وانتفضت على صدري مرات عديدة تسألني لمَ يحرمها الله من أب ويعوضها بآخر، ثم يلحقه بمن سبق..

بكيته أنا.. بكيته بضياع.. بذهول.. بذعر لا حدود له.. بكيته وأنا أحمل وليده الصغير.. بكيته وأنا أستقبل مئات جاءوا للعزاء، ومع كل

منهم قصة عن العطار..

فتح بيوتًا كثيرة.. تكفل بأسر كثيرة لم أعلم عنها شيئًا، حتى وأنا أعمل معه وعنه في العطارة.. أكان خَيِّرًا أم تكفيرًا عن ذنب؟!

ما عاد شيء يهم سوى أننا جميعًا بكيناه، حتى فاطمة جاءت وبكته كما لم أظنها ستبكيه يومًا..

كان في بكائها ندم واستغفار.. في نحيبها شوق وحنين..

فات الأوان يا شقيقتي.. فات الأوان يا لب روحه وتفاحة عينيه..

بكيناه بكاء لم يبكه أحد، لكن كان حزن أمي وبكاؤها عليه من جميع حزننا أكبر..

***

النساء سر الحياة ولغزها الكبير..

كيف أغلقت امرأة كسيدة صدرها على مأساة كهذه؟ كيف عاشت وضاجعت وأحبت رجلًا عاشر أو كاد أن يعاشر شقيقتها؟ المرأة كائن مخيف!!

جموح عشقها.. جنون غضبها.. رحابة صبرها، وأغوار سرها..

عطاؤها كأم.. قسوتها كجلاد.. فجور انتقامها وجنون كبريائها..

المرأة سر الله في الأرض، لهذا جعل الحياة، كل الحياة من رحمها تخرج..

كنت أرقبها تتألم على رحيل والدي.. تحمل ولدها وتمسح على

فراشه في ألم.. تطهو مع وديدة التي على مشارف الولادة، وتبتلع مع كل لقمة تصنعها لنا دمعًا وقهرًا تتمزق له قلوب الحجارة..

كنت أنظر إليها وأسأل..

حزينة لرحيل الرجل.. أم ثكلى لهذا اليتيم الصغير على ذراعها؟!

نادمة لظلمها له، أم ناقمة لأنها ما انتقمت حقًّا منه؟!

تحبه إلى هذا الحد، أم أرادت تعذيبه أكثر؟

لا شيء يمكن أن تعرفه عن امرأة قررت الصمت..

المرأة حقًّا كائن مخيف جدًّا!!

***

تأخرت وديدة في الإنجاب.. عبرت بوابة الخروج من الشهر التاسع، وأصبحت في العاشر دون أي أعراض مخاض..

ربما أراد الله هذا لتكون أكثر تفرغًا لرعاية أمي ووليدها، ربما لتهدأ أحزاننا..

لا أعلم، لكن أخبرنا الطبيب أنه سيقوم بتوليدها إن لم تفعل..

جلسنا جميعًا على مائدة العشاء أنا وأخي الصغير على كتف أمي نفكر فيما نفعله..

اقترحت أعشاب أوراق «العلبق الأحمر» أو «توت الجبل».. أخبرتها عن دور هذه الأعشاب في تحفيز الرحم..

أذهلتني أمي عندما قالت إن عشبة «وحيد القرن» أفضل أو «زهرة الياسمين»، لكن إياك والكمالية يا رجائي.. رغم قوتها قد تقتل!!

نظرت إليها في هدوء كأني أسأل، وأرخت رأسها على دمعة وقالت:

ـ شربت العطارة، لكن ما كان يمكن أن أنطق وأبوك على قيد الحياة..

نعم شربتِ العطارة يا أمي من أبيكِ وأبي..

وديدة كانت خائفة، تنظر إلى وجهي ووجه أمي كأننا أطباء ترجوهم الرفق..

حين سألتها عن رأيها قالت:

ـ لا أعلم، ربما..

قبل أن تكمل قاطعتها أمي قائلة:

ـ أبدًا لن أترك الطبيب يشق بطنك.. لا تصدقيه حين قال إنك في الشهر العاشر.. حساباتهم خاطئة وحلولهم دومًا متسرعة وحمقاء..

الأطباء حمقى والعطارون حكماء.. تمامًا يا أمي كالضحايا قتلى والقاتلون دومًا طُلقاء!!

***

تناولت وديدة ما صنعته لها من منقوع أعشاب الياسمين وتوت الجبل..

ثلاثة أيام تشرب بعد أن تنظر إلى وجهي وتسألني إن كنت حقًّا

أعلم ماذا أفعل..

يا رفيقة الدرب، اليوم وأنا على مشارف مغادرة الحياة أخبرك لا أحد يعلم ماذا يفعل.. جميعنا نجتهد ونحاول..

الطبيب بجداول الدواء، والعطار بقائمة الأعشاب، والناسك بما حفظ من الدعاء، لكنها الأقدار وحدها يا وديدة تكتب النهايات وتحدد القرارات والمصائر!!

في فجر اليوم الرابع بدأت تتألم وبدأ المخاض.. ابتسمت ابتسامة صغيرة مغرورة!!

حين طرقت باب أمي وفتحت قلت:

ـ أفلحت الأعشاب يا أمي.. وديدة تلد..

سيدتان متشحتان بالسواد، إحداهما أخذوها إلى غرفة الولادة لاستخراج طفل من أحشائها، والأخرى جاءت معها ومعي وعلى ذراعيها وليد صغير لا نعرف أين أو مع من نتركه..

نام الوليد على ذراعي أمي حين طال الانتظار على باب الولادة، وضعته في هدوء على أحد مقاعد الانتظار، وبدأت تتمتم في الدعاء..

في لحظة تذكرت أني لم أفكر مرة في السؤال عن نوع الجنين، لكن بكل قلبي وجوارحي لا أريد أنثى..

كأن أمي قرأت أفكاري سمعتها تهمس:

- هل تطلق على وليدك اسم أبيك؟!

قبل أن أجيب أو تكمل.. قبل أن يستيقظ وليدها ويصرخ خرج الطبيب بالنبأ العظيم..

لا يهم ما تريده أو يريده لك الآخرون، المهم والنافذ دومًا هو ما يريده الله..

خرج الطبيب يعلن أني رزقت فتاة..

أعشابنا أفلحت في تحفيز الرحم لكنها هتكته أيضًا..

اضطر الطبيب لاستئصال الرحم إنقاذًا لحياتها، والحمد لله أنها والوليدة بخير..

«لا تخشَ شيئًا.. ما استأصلنا سوى الرحم.. المبايض بخير مما يعني أن كل وظائفها الحيوية أيضًا بخير»..

قال كلماته تلك وغاب..

أي وظائف يتحدث عنها؟!

وديدتي بلا رحم.. وديدتي بتروا منها سر الحياة والوجود..

بكيت في مرارة.. ربما عاقبني الله لأني ما كنت أريد الإنجاب.. بكيت في أسف..

إن قرر الله عقابي فلماذا تدفع هي الثمن؟!

لله حكمة لا أحد يفهمها.. لله حكمة لا عقل يدركها..

ضمتني أمي إلى صدرها وقالت:

ـ لا تحزن.. جاءتك فتاة وأخوك وليدك.. سأموت يا ولدي وتصبح أبًا لهما معًا..

المرأة أيّا كان جبروتها، أمام حزن وضعف أبنائها تصبح أكثر منهم ضعفًا.

سكنت على صدر أمي.. سكنت واستغفرت، وفتحت عيني.. شعرت أنهم سكبوا فيها فنطاسًا من ماء المحيط المالح.. مضيت خلف أمي إلى حيث الصغيرة..

لم تكن تبكي..

هادئة.. حالمة.. تُحرك فمها الصغير في سكون، تفتحه وتغلقه كأنها تبحث عن صدر أمها..

ملامحها دقيقة رقيقة، لا تعلم عني وعن رفضي وندمي شيئًا!! لا تعلم الثمن الذي دفعته أمها لنراها!!

لحقتني أمي وعلى ذراعها طفلها..

سَمَّت بالله، صَلَّت على رسوله، وابتسمت رغم أحزانها، فلا أحد.. لا أحد أبدًا يملك ألا يبتسم عند رؤية وليد لتوه يطأ أرض الحياة..

سألتني ماذا نسميها..

كأني أعرف.. كأني حقًّا قررت منذ زمن، أجبتها وأنا ما زلت برائحتها ونقاء شفتيها مبهور..

كنت بخجلي من أعشابي التي سقيت وديدة، وبرفضي لحملها أكتوي..

ما زلت بكلمات أمي عن الرحيل ملتاعًا.. ما زلت ببهاء سكون الوليدة حبيس الأنفاس..

مشاعر كثيرة مختلطة متناقضة كانت تحتلني، وهمست دون وعي:

ـ أسميتها صفاء!!

***

وتصفو الأيام وننسى..

ننسى ما تعلمناه، وما عاهدنا الله والناس عليه..

ننسى الجراح والخطايا والآلام، نضحك ونمضي كأننا لا بكينا ولا أذنبنا..

العطار أصبح بعيدًا في السماء، وفاطمته تحت سماء أخرى بعيدة..

رسائل صغيرة قصيرة ومكالمات بعيدة..

وديدة أم لرضيعين.. نسيت فجيعتها في رحمها المبتور، وحتى حزنها على أبويها..

«عوضتني السماء يا رجائي» قالتها ليلة وانكمشت على صدري كأنها في ليلة عرسها..

عادت رائحة الطهو تتصاعد من مطبخنا، وصوت الأغاني ينطلق

من مذياع بيتنا..

صفوت بل صفوت كثيرًا..

برحيل العطار لا تجنيد.. برحيله أنا سيد العطارة ورب العمل والبيت..

بعد أربعة أشهر، وبعد انقضاء عدة أمي، أفقت ذات صباح على وجهها دون دمع.. دون حسرة..

كان وجهها ذاك الصباح وجهًا لم أره من قبل، على مقعده جلست على رأس مائدة إفطار الصباح، حين نهضت وتوجهت إليها أقبل كفها قبل ذهابي إلى العطارة ضغطت على كفي تطلب مني الدخول إلى صالون البيت..

بعيني سألت وديدة إن كان هناك شيء لا أعلمه، وبعينيها أخبرتني أنها لا تعرف شيئًا..

حين أغلقنا الباب خلفنا سمعتها تتحدث في هدوء.. في ثقة..

أخبرتني أن العطار لم يمت.. في بساطة قالت إنها هي العطار، وأكملت:

- وديدة تعتني بالطفلين.. من الغد أخرج معك إلى العطارة كل يوم..

في استنكار نظرت إليها.. لم تغادر باب البيت سوى مرات قليلة، فماذا تظن نفسها تفعل؟!

ـ ألا تثقين في ولدك؟! هل تظنين أني لن أُحسن إدارة المحل أم.. أم تخشين أن أسرق مالك ومال فاطمة؟!

لم يهتز في جفنها رمش واحد، بل بقيت تنظر إلى وجهي في ثبات وقالت:

ـ رغم أني لست مُطالبة بالشرح أو التبرير، لكن سأقولها مرة واحدة: التجارة في دمي..

احترمت رغبة أبيك وفهمت غرور الرجل، تركته يتولى كل شيء، لكن رحيله رسالة من الله لأستعيد حلمي البعيد..

قاطعتها قائلًا:

ـ أنا رجلك يا أمي..

نظرت إلى وجهي نظرة حانية وضحكت في مرارة تقول:

ـ رجلي مات.. أنت ولدي، الفارق كبير..

أطرقت برأسها لحظات وأكملت:

ـ لم يكن أبوك ثريًا.. العطارة ميراثي من أبي..

تمنيت تلك اللحظات لو تفتح صدرها وتحكي القصة فقلت:

ـ لم تتحدثي يومًا في هذا الشأن..

قاطعتني في حزم:

ـ ولن أفعل.. انتهى الأمر، ولم يبق لك أو لأختك عندي سوى

قرارين.. الأول لا ميراث يُوزع حتى أموت، والآخر أتولى العطارة وإن شئت كنت معي..

في ذهول سألتها:

- ماذا لو لم أشأ؟

في ثبات قالت:

- ابحث إذن عن عمل بشهادة جامعتك، ولا تطأ محل العطارة بقدميك حتى أموت!!

***

لم تكن أمي يومًا قطة لأقول إنها تحولت إلى نمرة، وأيضًا لم تصبح نمرة لأزعم إن أصلها كان قطًّا..

هي امرأة، وهذه الكلمة تحمل كل ما نعرف وما لا نعرف..

على مقعد العطار في العطارة جلست.. مع الموردين تحادثت، في صبية المكان أحلَّت وجددت..

في شهور قليلة أصبحت مبيعاتنا أكثر.. زبائننا من كل مكان..

أصبحت أرى لها ولعطارتنا صورًا كثيرة على وسائل الميديا..

ألأنها امرأة والنساء في مجالنا قليل؟!

لا والله بل هي تستحق..

كان أبي يعامل عملاءه كطبيب طيب، وعاملتهم كأم حازمة تعلم ما تقول وتفعل..

مع البضاعة والموردين أسد، لا تعبيرات في ملامحها أو صوتها سوى الأرقام..

في نهاية اليوم طفل صغير، يعد النقود في فرحة كلما وجدها يومًا عن يوم تكثر..

على باب البيت وقبل أن ندخل تعود سيدة القديمة بصمتها وقوتها وأيضًا أمومتها..

تحمل الطيب على ذراعها وتدخل به غرفتها، حتى تنتهي وديدة من إعداد الطعام لنجلس جميعًا كأن العطار ما غاب..

ذابت وديدة في مهام أمومتها وبيتها.. ذابت حتى بدأت ضحكاتها تخبو، وحدها أمي التقطت ذلك.. أخبرتها أن تبحث عن خادمة تساعدها..

في ذات ليلة أخبرتني أمي أني أفقد وديدة كأنثى..

أصدرت قرارًا بمنحي يومي إجازة كل أسبوع، وقرارًا آخر بألا تراني أو زوجتي خلالهما في البيت..

أحضرت خادمة من خلال زبائنها فقط لرعاية الوليدين في نهاية الأسبوع..

من خلال علاقاتها!!

أمي أصبح لها علاقات ومعارف!!

تحول كل شيء إلى يديها، وكبُر كل شيء بين يديها، وأنا فَاغرٌ فاهي كدراويش الموالد..

في كل عيد جاء كانت ترسل صندوقًا كبيرًا من حلوى العيد إلى عائلة فؤاد.. توصيني أن يكون من أكبر المحلات وأغلاها..

لا سارق كالأيام، ولا غافل كالإنسان..

قبل أن ينقضي العام الثاني على رحيل العطار أفاقت فاطمة وزوجها..

حضر فؤاد إلى زيارة والديه وطلب لقاءنا..

دعته أمي إلى العشاء، وجاء كالغرباء يحمل صحنًا من الحلوى..

ربت على رأس الطفلين دونما اهتمام..

سألته عن فاطمة ووليدها، وكيف لم تأتِ معه..

ارتبك قليلًا ثم تحدث عن صعوبة حركتها بالطفل.. عن ذهابه إلى الحضانة.. عن غلو التذاكر وارتفاع أثمانها، وعن المسئولية الكبيرة التي يحملها وحده وزوجته بلا عمل..

قبل أن أجيبه بكلمة ابتسمت أمي قائلة:

- أنتَ كفاطمة، وحين دخلت شعرت أني رأيتها..

ابنتي لا تعمل!! لو بقيت معنا ما احتاجت عملًا، وإن أرادت فشهادتها كفيلة بأن تجد عملًا، لكنها ذهبت خلفك.. خلف رجل!!

سكتت عند هذه الكلمة لحظة لتنظر إلى عينيه وأكملت:

- إن كنت تعجز عن التكفل بها أرسلها وولدها وأنا أفعل..

قاطعها في حدة:

- لها ميراث تريده..

دقت أمي بقبضتها على المائدة تقول:

- العطار لم يمت، مالي وماله لن يُقسم حتى أموت.. ماذا تريد يا فؤاد؟!

قال كأنه يزمجر:

- الحق.. أريد الحق.. لا تدعينا نلجأ إلى القضاء..

دون أن يهتز لها رمش قالت:

ـ وديدة.. اصنعي لنا الشاي يا ابنتي..

استدارت نحوه قائلة:

ـ لا مليم باسم العطار.. كل ماله باسمي وحدي..

في ذهول طلب إثباتًا، وأجابته:

ـ من أنت لتطلب؟! أخبرها ألا ورق ولا إثبات إلا في قاعة المحاكم..

ارفع قضية إن كان معك منها توكيل، أو فلتشرب كوب الشاي ولتمضِ في سكون..

نهض فؤاد وألقى تحية باهتة علينا متوجهًا إلى باب البيت، وقبل أن يصل صاحت أمي تناديه، حين استدار قالت:

ـ أُرسل لزوجتك مبلغًا كبيرًا كل شهر..

رفع حاجبه في ألم، وأكملت أمي قائلة:

ـ أُرسله عطية وليس ميراثًا.. أرسله مساعدة لامرأة ما زالت تحمل اسم العطار، لكن يبدوأنها لم تخبرك لأنها لا تثق فيك.. خسرتَ حبها وثقتها، فماذا تريد من مال أمها وأبيها بعد؟!

***

هل حقًا كل المال باسم أمي؟! وأين هو المال؟!

لم يستوقفني أو يستوقف فاطمة يومًا أن البيت باسمها..

الإيجارات التي تدخل إلينا منه بسيطة، فلم نقف يومًا عندها..

دكانة العطارة باسمها؟!

نعم ولكن لم أشعر يومًا أنها صاحبة المال..

مواقف كثيرة وتفاصيل صغيرة في حياتنا، لم نعلم أن خلفها حقائق كبيرة..

لماذا ألقت أمي الشك في قلب فؤاد من زوجته إن كانت حتى لا تنوي تحقيق مطلبهما؟!

أتنتقم من قسوتها والغياب؟!

أتحاول إذلاله كما فعل بها وبأبي؟

وإن كان هل تُلام ووحده جاء يطلب ما لا حق له فيه؟! بل ما هو الحق والعدل؟!

إن كان وحده الله من يحدد الحق والعدل فأمي مذنبة، وإن كانت الظروف من تُشكلهم فالحق والعدل دومًا في صف كل بعينه وحسب ضيق رأسه..

إن قال الله كلمة لا تسأل.. لا تُحلل.. وأبدًا أبدًا لا تجادل!!

أيها القاضي:

حُكمك عادل، إعدامي حق، وإن كان خلفهما قصة فالعدل فيها براءتي!!

***

كبرت مكاسبنا وحاولت كثيرًا أن أقنع أمي بافتتاح فروع جديدة..

«العطارة إيجار ولا أحد يعلم ما يجد من قوانين يا أمي».

«فلنتوسع عَلَّ الله أن يوسع علينا أكثر»..

لا شيء ترد به سوى نظرة استخفاف بعقلي وأفكاري..

«نجحت عطارتنا لأني فيها، ولن أكون في مكانين.. الناس تركض خلف الناجح وإن كان على أطراف البلاد»!!

ذاك كان ردها، واليوم وأنا أنتظر موتي أخبرك ربما كانت على حق..

لو كان لنا فروع أخرى من كان سيديرها الآن؟ وإن وجدنا من يفعل ما كان لاسم عطارة المهاجر أن يرتفع ويتداوله الناس في وسائل الميديا والأخبار..

أذكر أن أحد البرامج الشهيرة جاءت يومًا تصور عطارتنا، سألني مقدم البرنامج الشهير عن سر تفوقنا وشهرتنا رغم عمر عطارتنا القديمة، لم أجد كلمة أقولها سوى «أمي»..

حين سألها أجابته:

ـ العطارة في دمي.. أتذوق بلساني كل صنف من التوابل قبل نزولها أرض دكاننا..

كل عشبة أصفها.. كل قطرة زيت أمنحها لمريض.. مرت على جلدي أولًا، وكل من يقف على بابنا أشهد الله أني أراه ولدي أو ابنتي، وهل تعلم ماذا يقدم الإنسان لهما؟!

قالت الحق، هذا ما أصبحت عليه سيدة، وما أصبحت عليه..

التابع الأمين!!

أسمع وأنفذ.. أعرف وأكتم.. أفهم ولا أواجه.. أصمت ظنًّا أن الصمت احترام، لكن بداخلي من الحديث ما يشعل براكين..

تائه بين الصواب والخطأ، بين الكتمان والمواجهة.. بين السؤال والتغاضي..

الفروق بينهم صغيرة والحدود كخط صراط القيامة.. من أصابها ينجو ويحيا، والأحياء سيدي قلائل..

تحاشيت أي صدام أو مشاكل.. أي عراك أو خلاف..

فقط يعنيني أن تبقى الصورة طيبة، وإن كانت النار تسري في الهشيم..

أمي تعمل.. أمي تقود كل شيء..

ما القضية ما دمنا ننجح ونحقق أرباحًا؟!

وديدة تقوم بأعباء أمّين وربما أبَوين..

ما المانع؟! ما زالت لا تعترض، وتخرج معي إلى المتنزهات، وتبادلني العناق في الفراش؟!

بعينها نظرية الغرف الخلفية..

أبدًا لا يهمك ما يدور فيها ما دامت واجهة بيتك تبدو بخير!!

***

هل تظن أن رسل الله انتهت وما عاد يُنزل بيننا رسولًا؟!

اسمح لي أن أخبرك أنك خاطئ..

رسل الله إليك باقية..

العادل في السماء، يا أداة العدل في الأرض، يُرسل في كل يوم ألف ألف رسول..

رسله مواقف.. حكايا.. عطايا.. خسائر.. دمع وحتى ضحكات..

إن فهمت نجوت، وإن لم تتبع ما جاءوك به مرة وعشرًا عذبك الله..

أما قال عز جلاله في سورة الإسراء:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾؟!

إنذارات يضعها في طريقك.. إما أن تقرأ أو يأتيك العذاب يوم الإفاقة!!

خطأ أن تحرم أمي ابنتها من ميراثها أيّا كانت أسبابها..

فاطمة ليست سفيهة لتحجر على حقوقها، بل إن كانت لا تداوي الخطيئة بخطيئة..

أفقنا على يوم عادت فيه إلى أرض مصر لتطاردنا بالقضايا..

حرمتنا رؤية صغيرها، وأصبحت لا ألتقيها إلا في مكالمات غاضبة، ورسائل محملة بالدعاء واللعنات، وفي ساحة المحاكم..

عداوتها كانت رسولًا.. سخطها وغيابها كانا رسولين، لكن ما زادت أمي إلا عبوسًا ونفورا..

حتى الخطايا تألفها النفس، ويخبو بعد تكرارها الخجل ويموت الضمير..

التبرير!!

التبرير دهليز الظلمات..

المال مال أمي.. الجهد جهدها..

فاطمة هجرتنا.. زوجها يطمع في نقودنا..

جميعها تبريرات جعلتنا نقسو ونألف الخطأ، حتى كدنا نراه الصواب..

أعوام مرت والقضايا بيننا، وفاطمة قائمة كأنها أصبحت غريمتنا..

حين أصبحت ابنتي في الرابعة وشقيقي الصغير، وفي اليوم الأول لهما في المدرسة نظرت إلى وديدة وهي تمشط شعرها القصير الأجعد..

رفعت عينيها تنظر إلى وجهي، وقالت في ألم:

ـ أخشى أن تسخر الفتيات من شعرها القصير..

كانت أمي ترتشف شاي الصباح في هدوء ترقب وجه الصغيرة الجميل..

استدارت وديدة إلى الطيب.. هو أيضًا جميل..

أصلحت له زي المدرسة ومشطت شعره، ثم ضمته إليها في حنان، وأسرعت تحضر لهما ما أعدته من طعام اليوم..

بكت الصغيرة وبكي حين رآها تبكي.. قالت في توسل:

- لا أريد الذهاب.. لا أريد أن أتركك..

رأيت الطيب يرتمي بين ذراعي وديدة لا أمه، مرددًا ذات الكلمات..

بكت وديدة أيضًا، لكنها عانقتهما، نظرت إليّ من خلف ظهرهما قائلة:

- يأخذكما بابا إلى المدرسة، وفي الطريق يشتري لكما الحلوى.. أليس كذلك يا رجائي؟!

أجبتها بالإيجاب، نظرت إلى أمي في حيرة.. أصبحت أبًا لشقيقي، هي المرة الأولى التي أخرج بهما وحدي..

مددت ذراعيّ نحوهما، والتقط كل واحد منهما كفًّا ومشيت في هدوء..

في السيارة تحادثنا، اشتريت لهما الكثير من الحلوى، لكن قلبي على ابنتي يتوجع أكثر..

ليس بيننا الكثير.. وديدة تفعل كل شيء، غالبًا لا أراها سوى دقائق كل يوم، لكن في المدرسة وحين أسلمتها إلى معلمتها بصحبة شقيقي كانت عيناي تتبعها أكثر، وقلبي يدعو لها أكثر..

أيّا كان حبك لأخيك.. لصديقك.. ليتيم تفتحت عيناه على الحياة

بين ذراعيك، يبقى دومًا حبك لوليدك أكبر..

ذاك المساء وبعد أن نام الطفلان الباكيان من يومهما المدرسي الأول، على مائدة العشاء جاءت أمي إلى طاولة الطعام تحمل في يدها قنينة صغيرة، منحتها وديدة قائلة:

- ضعي من هذا الزيت على شعر ابنتك قطرات كل صباح وأنتِ تمشطينه، ولنرَ النتيجة..

بلا وعي وفي فرحة قالت وديدة:

- هل يصبح شعرها مثل شعرك؟!

ابتسمت أمي تلك الابتسامة الفيروزية الساحرة قائلة:

- فلنرَ..

كل النساء وفي كل الأعمار تسعدهن كلمات الإطراء..

حين خلونا إلى فراشنا تلك الليلة حدثتني عن خوفها على الطفلين.. عن مخاوفها.. عن قصصهما عن الأطفال..

كانت تحكي على صدري وأستمع..

وديدة أم رائعة.. شعرت بشوق كبير إليها..

داعبت شعرها ومسحت على رأسها..

سكتت واستجابت.. بطرف عيني نظرت إلى صغيرتي الغافية في سريرها الصغير المجاور للنافذة، التي طالما شهدت سهري مع فاطمة وأحاديثنا تحت ضوء القمر..

النافذة ستائرها مُسدلة، لكن ضوءه كان أقوى..

ربما أرادنا الله أن نرى بوضوح، لكن كنا هائمين في شهوتنا وشوقنا..

أخذت حبيبتي في لهفة، وتناولتني في نهم..

كلما تأوهت أكثر قسوت عليها أكثر، كأني أشعرها بقوتي التي لا صوت لها..

أؤكد رجولتي الضائعة تحت قدمي أمي وتعديات شقيقتي..

لقاء مختلف، سقطت بعده وديدة كورقة شجر على أرض حقل كبير..

وضعت على جبهتها قبلة حانية، وتسللت من فراشي بجسدي العاري لأغتسل..

أتمنى كثيرًا لو أني أضمها إلى صدري وننام ثم أغتسل صباحًا، لكن دومًا أخجل أن أفعل ذلك ..

ليس لدينا سوى «دورة مياه» واحدة، وإن اغتسلت ووديدة في الصباح أصبح هذا تصريحًا سافرًا عما دار منذ لحظات..

اغتسلت وعدت إلى غرفتي لأجد زوجتي نصف نائمة وبين ذراعيها ابنتنا الصغيرة..

نظرت أسألها، أجابتني في صوت غائم كأنها تعتذر:

- جاءتني ترتجف خوفًا.. تراودها كوابيس كثيرة أظن المدرسة

اليوم هي السبب..

صعدت إلى فراشي ثم استدرت أنظر إلى شعاع ضوء القمر المتسلل..

ما زال الضوء جليًا قويًا كأنه يريدني أن أبصر أمرًا..

بقيت مفتوح العينين أفكر..

ابنتي تأتي كثيرًا للنوم بين ذراعي أمها، ودوما أشعر بها ترتجف..

مر برأسي هاجس، وبدأت أحاول استعادة كل مرة جاءت فيها إلى فراشنا ترتجف لتضمها أمها وتنام..

يحدث في كل مرة أضاجع فيها زوجتي..

الصغيرة ترانا وتسمعنا وبعد انتهائنا تأتي..

تأتي خوفًا.. تأتي لتضم أمها بذراعيها الصغيرتين..

ربما ظنت أني في كل مرة كنت أؤذيها، أو ربما تأتي لتحتمي بها..

عدت أنظر إلى ضوء القمر وكأني رأيته يعلو..

بدا يناديني.. كأنه يوقظ في رأسي هذا الصوت..

الصغيرة ستكرهني إن ظنت أني أؤذي أمها..

يجب أن أراقب ما يحدث، وإن ثبتت نظريتي فهناك أمر ما يجب أن يُفعل وقرار ما يجب أن يُتخذ..

نمت بعد ساعات من التفكير..

ما حدث كان رسالة.. كان رسولًا، أحيانًا لا يكون المهم أن تتلقى الرسالة..

الأمر الأهم والأجلّ هو كيف تقرؤها، وكيف تفسرها..

الرسل تأتيك، لكن البصيرة وحدها تُنجيك!!

***

أخبرت وديدة بما دار في رأسي، وتعاهدنا أن نراقب الأمر..

على مدار شهر كامل كانت الصغيرة تأتي إلى فراشنا بعد مغادرتي للاستحمام، عدا مرات قليلة، أظنها كانت فيها غائبة في إنهاكها بعد يوم دراسي شاق..

لاحظنا أيضًا أنها إن بَقيتُ في فراشي بعد اللقاء لا تأتي..

في إحدى تلك المرات ناديتها بصوت خافت أكثر من مرة، لم ترد لكن شعرت برجفتها في فراشها..

لم أنهض للاغتسال ليلتها، وفي الصباح وحين كانت أمها تمشط شعرها لمحتها تنظر إلى وجهي نظرات فيها مزيج من خوف وتساؤل..

ابنتي تراقبنا.. الصغيرة ترانا نمارس الجنس، لكنها لا تفهم..

حين غادرت مع الصغير إلى المدرسة اختليت بوديدة في غرفتنا..

تحادثنا طويلًا وكثيرًا.. بكت المسكينة، وكل ما يشغل رأسها أن ابنتنا ستحكي كل ما تسمع وترى لأصدقاء مدرستها..

جُلّ همنا أن ننسيها ما يحدث حتى لا تذكره..

لم تفكر وديدة أو أفكر في محاورتها.. في الاستماع إليها وشرح الأمر..

فكرنا في أطفال المدرسة، ولم نفكر في طفلتنا..

«الأيام ستنسيها كل ما رأته.. ما زالت طفلة»..

هذا ما قالته وديدة وما صدقته أنا..

حمقى إن ظننا طفلًا ينسى ما رأى أو سمع في طفولته..

حتى الشيوخ ومرضى «الزهايمر» ينسون كل شيء وأي شيء، إلا أيامهم القديمة وذكرياتهم الأولى!!

يومها قالت وديدة:

ـ يجب أن نتوقف عن ممارسة الجنس ليلًا!!

متى إذن؟!

في الصباح أذهب مع أمي إلى العطارة، وبعدها يعود الأطفال من المدرسة..

على استحياء قالت:

ـ فلنضع الطفلين في غرفة بعيدًا عنا..

في الماضي تقاسمنا وأختي غرفة، لكن كيف نفعلها الآن؟!

ارتفع صوت أمي يناديني إلى موعد الذهاب إلى العمل.. قبلت رأس

وديدة وقلت:

ـ سأجد حلّا .. لا تقلقي..

أحيانًا ليس الصواب أن تجد حلّا لمشكلة، الصواب الحقيقي أن تداوي ما تركته المشكلة في النفوس من آثار!!

***

أسابيع قليلة لم أتوقف فيها عن التفكير، لم أقترب فيها من زوجتي، في مساء إحدى عطلات نهاية الأسبوع، حيث تعد لنا وديدة أشهى وجبات الأسبوع لنلتف جميعًا حول المائدة..

كانت سيدة هادئة منتشية بأرباح كبيرة حققتها..

وضعت أحد أصابع ورق العنب في فم ولدها، ثم استدارت إلى زوجتي تقول:

ـ ألا تلاحظين شيئًا؟!

تبادلت وديدة معي نظرة سريعة كأنها تسأل، واستدرت إلى أمي التي قالت مشيرة إلى الصبية:

ـ ألا تلاحظين شعرها؟

ابتسمت زوجتي في فرح قائلة:

ـ كنت أنتظر أن يخبرني منكم أحد.. ظننت نفسي أتوهم التغيير..

تبادلنا حديثًا طويلًا عن تأثير توليفة أمي، وخليط زيت عشبة إكليل الجبل وزيت الأرجن الذي نستورده من المغرب..

تغير شعرها وزادت كثافته وطوله، حتى أنها نظرت إلى جدتها قائلة في فرح:

- جميع البنات يسألن..

استدرت إلى أمي قائلًا:

- فلنطرح التوليفة في العطارة، ونطلق عليها «توليفة المهاجر».. هل تعلمين يا أمي كم نكسب؟

سكتت سيدة لحظات كأنها تفكر..

أعلم أن «زيت الأرجن» ليس رخيصًا، خاصة ما تستورده أمي.. زيت إكليل الجبل أيضًا ليس زهيد الثمن.. زيت الزيتون من سيوة لكنه أيضًا مكلف..

بدت عيناها حائرة غائمة كأنها تحسب تكلفة التوليفة..

بعد دقائق قالت:

- حسنًا فلنجرب!!

أيها القاضي:

أثق أنه إن كان في بيتك زوجة أو ابنة فدون شك سمعت منها أو اشتريت يوما لها «زيت المهاجر للشعر»..

بقيت توليفته السرية ومعاييرها في يد أمي وحدها، لكن حصدنا جميعًا منه صيتًا وشهرة ومكاسب..

جميعنا عدا فاطمة وحدها..

الشهرة والنقود تُلهيك.. تُنسيك..

نسينا قصة الصغيرة، فقط في كل مرة أقترب من وديدة نتذكر فيعطي أحدنا ظهره للآخر، وننام على أمل أن نفعلها في وقت نصبح فيه وحدنا!!

«وحدنا» أصبحت هاجسي وهاجس وديدة الكبير!!

ستة أشهر تقريبًا على مولد زيت المهاجر، حتى جاء اليوم الذي قررت فيه مفاتحة أمي في الأمر.. تجرأت وأخبرتها أن مواردنا تسمح لي ببيت منفصل!!

رفعت حاجبها في دهشة كأنها تستمع إلى مجنون..

تحدثت كثيرًا عن ضيق بيتنا وحق وديدة..

حاولت كثيرًا وطويلًا، لكنها أبدًا ما اقتنعت، وفي لحظة جنون قلت:

- حسنًا.. أصبح لدينا مال وفير.. لماذا تمانعين إن أجرت بيتًا لي ولزوجتي؟ إن كان من أجل الطيب فليأتِ معنا!! تعلمين أن وديدة تذوب فيه حبّا.. نأتيك كل يوم به..

كأن تنينًا ضخمًا خرج من رأسها وعينيها..

شعرت حقًا بلهيب يكاد يكويني من نظرات عينيها..

أخبرتها أني سأختار بيتًا قريبًا.. لو تمكنت من تعويض أحد سكان

بيتنا أسكن في شقة مجاورة لها..

في نهاية الأمر كدت أبكي، توسلت قائلًا:

ـ يا أمي ما عادت صغيرة.. أخجل من أن تراني أبدل ثيابي، أو تشعر بي وبزوجتي..

لم أستطع أن أكمل أبدًا، لكنها فهمت.. نهضت عن مكانها تنظر إلى وجهي في اشمئزاز قائلة:

ـ لن تغادروا البيت، وإن فعلت فليس لك عندي مليم واحد.. لن تغادر البيت حتى تشيع جسدي منه.. هل تفهم؟!

قبل أن تدخل إلى غرفتها قالت في تهكم:

ـ سيطر على شهوتك أنت وزوجتك، وحدد يومًا تُحضر فيه ابنتك للمبيت في غرفتي..

غابت بعيدًا عن عيني، وخرجت وديدة على صوت انفعالها لتقف حائرة تائهة..

نظرت إليها في شرود..

كيف أحدد لها يوما؟ كيف أطلب من صغيرتي النوم في غرفة جدتها ليلة؟

وكيف أعود؟ وهل أستطيع أن أضاجع زوجتي وأمي تعلم أننا نفعل؟!

اقتربت وديدة وهمست حزينًا:

- أمي مجنونة.. مجنونة!!

نظرت إليها لأجدها تبكي في سكون، دمعات كثيرة متلاحقة تسقط على وجنتيها..

دخلت غرفتنا، ولحقت بها لأجدها تجلس على حافة الفراش، وعيناها ما زالتا تمطران..

نسيت عراك أمي وجنونها.. جلست إلى جوارها، وقبل أن أنطق حرفًا سمعتها تقول كأنها تناجي نفسها:

- أحببت أباك، أوجعني غيابه كغياب أبي..

شعرت أن الطيب عوض الله لي عن فقد رحمي..

أمك أحبها كثيرًا.. حين تخبرني ماذا أطهو، وأي غرف يجب أن أنظفها، وأي ملابس يجب أن يرتديها الولدان، أتألم كثيرًا يا رجائي..

لم تستدر نحوي وهي تتحدث، بل حتى أظنها ما كانت تريدني أن أبادلها الحديث..

أكملت:

- أسعدني كثيرًا خروجها إلى العطارة.. في غيابها أشعر أني حقًا زوجة، وأن البيت بيتي.. بعد موت أمي كنث سيدة البيت.. هنا أنا خادمة البيت!!

أحلم أن يكون لي معك بيت أنا سيدته..

لم أستطع يومًا أن أخبرك، خشيت أن تظنني لا أريدها أو أجحد

فضلها، حين سمعتك تطلب منها أن نغادر استيقظ الحلم.. ليس حلمًا بل أراه حقًا..

استدارت تنظر إلى وجهي، وأكملت:

ـ أصنع لك ما أشتهيه من طعام.. أبدل ملابس أولادي كيف أشاء.. أتجول في المنزل بقميص نوم عارٍ.. أُغني وأنا أغتسل دون خجل..

هل تفهمني؟!

كيف عاشرتها، وأنجبت منها، وغفت وغفوت على صدرها، وأنا لا أعلم أن كل هذا بداخلها؟

أخبرتها أن سيدة لن ترضخ.. ستفعل معي ما فعلته بفاطمة.. أين نذهب؟!

نزلت وديدة عن الفراش، جلست أسفل ركبتي قائلة:

ـ نخرج.. أحضر كل صباح إلى هنا، أفعل كل ما تريد، وأعود إلى بيتنا.. بيتنا يا رجائي..

ابتسمت.. أي بيت إن طردتني؟ ومن أين؟

عادت تضع كفيها على ركبتي قائلة:

ـ نحيا في بيت أبي.. تعمل أنت وأعمل أنا..

رجائي لا أطلب منك أن تعصاها، لكن أريد أن ترضي الله فيَّ وفيك!!

رفعتها عن الأرض لتجلس إلى جواري وتلقي برأسها على كتفي..

كلانا ينظر إلى السماء ويفكر..

كلانا يرسم صورًا لكل ما قد يكون، إن رحلنا، وإن بقينا، إن أغضبناها أو أرضيناها!!

أيهما أحق؟!

ترفض أن تمنحنا حقًّا واحدًا، فكيف نسلبها حق وجودنا حولها؟!

بقيث.. وبقيث وديدة ساكنين ننظر إلى السماء، جاهلين أنها تنظر إلينا تنتظر قرارًا نتخذه بإرادتنا، وبعدها إما أن نبكي ونتهم القدر، أو نضحك ونمتدح ذكاءنا..

لا أحد.. لا أحد أبدًا يلوم نفسه أو يُحمِّلها وزر قراراته..

لهذا لا أحد يُبصر أو يتعلم!!

***

حين تشتعل فتنة في بيت ما لا تنطفئ نيرانها أبدًا بسهولة..

أصبحت أمي أكثر صلفًا وعنادًا، كأنها تُذكرنا كل صباح ومساء أن الأمر.. الأمر كله لها..

أصبحنا أكثر جمودًا وبلادة..

وديدة ما أصبحت تتحدث كثيرًا معها، لكن في كل ليلة تؤكد أن الرحيل أصبح أمرًا محتومًا..

في ليلة الجمعة الأولى بعد ذاك الصباح طرقت أمي باب غرفتنا،

وطلبت من ابنتي بصوتها الآمر أن تذهب للمبيت معها..

في تردد نظرت الصغيرة إلى أمها، لكن أمي قالت:

ـ تنامين مع الطيب وتلعبان كيف شئتما..

كأنها لوحت لها بقطعة حلوى لم تستطع مقاومتها.. نهضت من فراشها تتبعها في سكون..

شعرت أن أمي تهينني..

شعرت أنها تأمرني بمعاشرة وديدة..

شيء ما بداخلي تقزز..

أسرعت إلى صفاء وأمسكت بذراعها، ثم حملتها على كتفي وقلت ضاحكًا:

ـ شكرًا يا أمي.. أريد أن ألعب معها هذه الليلة..

نظرت إلى وديدة واستدارت تقول:

ـ لا تبكِ وتشكُ إذن!!

حين تدخل في معركة مع عائلتك ويصبح الأطفال طرفها لا تتوقع نصرًا أو هزيمة..

توقع دمارًا شاملًا، وإن كان بعد حين..

أعدت الصغيرة إلى فراشها وجلست بجوار زوجتي..

كلانا غاضب.. ثائر.. محروم حتى من حق التعبير..

أمسكت بكفها تحت كفي أضغطه، حين أمرت الصغيرة بالنوم، فقط لنستطيع أن نناقش الأمر..

نظرت إلى وجهي في غضب وقالت:

ـ أنت لن تلعب معي، فلماذا كذبت؟ لماذا تحرمني أن ألعب مع الطيب إذن؟!

الأطفال لا تفهم حزنك أو غضبك أو هزائمك.. يهمها فقط ما تريد!!

نامت ابنتي وأبوها عندها كاذب، وعمها الصغير وحده المنجي والملاذ!!

***

أخذتني وديدة إلى بيت أبيها، في يدها كيس كبير حملته عنها دون أن أعرف ما بداخله، توجهنا إلى البيت الذي حملتها فيه على ذراعيّ حين التوى كاحلها، لكن هذه المرة نظرت إليه بعين مختلفة..

البيت صغير.. بحاجة إلى طلاء وتأثيث..

غرفتاه صغيرتان، لا واحدة منهما تكفي سريرًا كبيرًا.. الحارة ضيقة، لكن كان الأمر في عينيها في اتساع الحرية وجمال الأحلام..

أخذت تشرح لي كيف نؤثث المطبخ الصغير، وأي لون نختاره لدورة المياه الصغيرة..

كانت تتحرك وتشرح وأنا أستمع في هدوء..

حين دخلنا غرفة النوم التي كانت غرفتها صاحت تقول:

- هنا نضع سريرًا بدورين، صفاء في الأسفل، وأخوها في السرير العلوي.. أعرف محلًّا يبيع ستائر وأغطية، بل وسجادًا من نفس اللون..

أمسكت بكفها التي تتراقص يمينًا ويسارًا، وقلت ناظرًا في عينيها:

- وديدة! هل تظنين أمي إن جئنا تترك لنا ولدها؟!

سكتت لحظة في ذهول..

زوجتي حقًّا تحبه، بل تراه ولدها، ، لكن هل يكفي ما تراه وتظنه لتتركه سيدة وتصبح كجذع مبتور من شجرته؟!

لا فاطمة.. لا أنا ولا حتى الطيب؟!

سكنت وتحجرت عيناها لحظات، أكملت أخبرها أن ما نريد صنعه بالبيت يحتاج إلى نقود كثيرة..

الشقة يجب أن تُنسف حوائطها ومطبخها وغرفها.. حتى أبواب الغرف يجب أن تُستبدل..

نعم أصبح لدينا ما يقارب المليون ويتجاوزه، لكن لا سلطان لي على مليم واحد منه..

ذبحني أن أراها تقف كتمثال صغير في يوم ريح، أكملت أقول:

- كل المال تحت يدها.. إن رضينا أن نحيا في البيت على حاله كيف ننفق؟ أين أجد عملًا؟! وهل يستحق الأمر أن أعصي أمي؟ أن أتركها؟!

أخي سيصبح مُحرّمًا عليّ.. ولدك يا وديدة..

هل نفعل حقًّا كل هذا من أجل..

ماتت الكلمات على شفاهي لحظتها..

أتحدث مثل أمي!!

نحن لا نريد الخروج لنمارس الجنس بعيدًا عن صفاء..

أبدًا.. نريد أن نشعر أننا أحرار..

لنا الحق في أن نحيا كما نشاء، لكن هل يستحق الأمر أن نضحي بكل الأشياء؟

وماذا أصبح إن فعلت؟!

ملعونًا عاقًّا.. منبوذًا وأيضًا فقيرًا!!

لم تكن تصدق أني لا أملك مالًا، ولا فتحت حسابًا، وهل نقتطع من مالنا مالًا نضعه في خزينة أو نخبئه في صندوق؟

كل المال تحت يدي، ورغم هذا حسابنا البنكي باسمها..

عندي توكيل، لكن هل أسرق أمي، وإن كان عرقي وجهدي جزءًا منه؟!

لاحت في عيني وديدة دموع، لكنها بعد دقائق غابت عني وعادت..

عادت ترتدي قميصًا حريريًا في لون حبة كرز لبناني..

كانت تحمل في يدها «صينية» كبيرة، عليها صحنا طعام، أحدهما

فيه «الحمام المحشو» الذي أحب، والآخر السلطة الخضراء التي تجيد صنعها مع أوراق البقدونس والنعناع..

شعرها مسدل على كتفيها، قميصها قصير جدًّا، ويفوح منها رائحة عطر جميلة..

جلست إلى جواري تطعمني وتقبلني بين لقمة والأخرى..

حين انتهينا قالت في حسرة:

- هذا كل ما أريد.. أنا وأنت وحدنا..

مشطت وجهي بشفتيها المبللة بقطرات دمعها، وارتشفتها كما لم يحدث يومًا..

حين هدأنا همست:

- سامحني.. حلمت بيوم كهذا زمنًا، لم أستطع أن أخبرك حتى لا تسيء فهمي..

حاولت أن تكمل، أعلم كل ما تريد قوله، لكن شيئًا في صدري كان يتعجل الخروج..

شيء كالخوف من أمي إن تأخرنا.. شيء يرفض أن نحيا في هذا البيت الضيق، وشيء آخر يطل برأسه من صدري وينظر إلى صحني الطعام..

أنا رجائي صابر، لا أملك ثمن هذا الطعام إن خرجت من عباءة أمي، ولا أريد أن أتسول عملًا لدى منافس لها، أرفض تمامًا أن أتركها

تستعين بلص أو طامع في مالها وشقاء أبي وشقائي..

تسقط سيدة وتسقط عطارة المهاجر إن تركتها..

قد أرى أن سقوط أمي خير جزاء لاستبدادها وظلمها، لكن مالي يستحق أن أُبقي عليه وأبقى معه!!

***

مرت أيام لم أكتب لك فيها.. أيام ورفيق زنزانتي يسخر ضاحكًا كلما رآني أرقب كومة الأوراق التي عبأتها لك سطورًا وذكريات..

حين سألني إن كنت قد انتهيت وأخبرته أن لا، عاد يسأل ألن أكمل ما بدأت؟!

أكمل؟!

سمة الحياة النقصان أيها القاضي..

من منا أكمل ما يريد؟ جميعنا نأتي ونغادر الأرض وما زالت هناك أمور ما أكملناها..

أشعر أني فقدت في الأيام الماضية شغف الكتابة..

ترى كيف يُكمل الروائيون والحكّاءون قصصهم وكتبهم؟!

ألا تساورهم هذه الشكوك بعبث ما يكتبونه؟!

أم تراهم لا يفعلون لأنهم يكتبون عن أوهام وخيالات؟ أظن جميع كُتّاب الأرض بهم مسّ من جنون، أم تُراهم أكثر من يستحق الرثاء والشفقة؟!

هذا الصباح قررت أن أكمل..

يصبح من العار أحيانًا أن نمشي الطريق ولا نكمله، خاصة إن علمنا أن ما بقي.. كل ما بقي.. كل ما بقي منه خطوات أو أيام..

عدنا ذاك اليوم إلى أمي.. عاد معنا شعور عميق بأنها ظالمة وأننا مظلومون..

تشتري وتبيع.. تصدر تعليمات الصباح، تمنحني شيكات الغد، كأن شيئًا ما حدث أو كان..

في كل يوم بعد ذاك اليوم كان شيء بداخلنا جميعًا يُكسر وأشياء تموت..

ربما أجمل ما رأيناه يولد من تلك القصة التصاق الطفلين أحدهما بالآخر، كأنهما قررا خلق عالم غير عالم الكبار الأحمق..

طلبت من أمي راتبًا شهريًا، ورغم شعوري برفضها تركتني أحدد الرقم الذي أريد..

أصبحت في كل شهر أضع ما أستلمه بين يدي وديدة..

لم أنفق مليمًا من هذه النقود على لوازم أو مصروفات..

لوازم البيت ومصروفات الأولاد كاملة من دخل العطارة..

وديدة في ظرف عام حولت شقة أبيها الصغيرة إلى بيت آخر..

حين تريد تجد وقتًا وقدرة وعافية على فعل كل ما تظن أنك عنه عاجز إن كنت لا تريد..

في إحدى عطلات نهاية الأسبوع التي كنا نخرج فيها معًا اصطحبنا الطفلين معنا، وأخبرتني أننا سنقضي اليوم في «بيتنا الصغير»..

غرفة والديها كان فيها سرير «140» سم وخزانة ملابس صغيرة ومقعدان..

الستائر بيضاء شفافة، حوائط الغرفة مدهونة باللون الأبيض..

المطبخ الصغير به خزائن رمادية في لون ضباب الصباح.. حتى الصحون كانت رمادية مزينة بخط وردي نحيل..

حين دخل الطفلان إلى غرفة وديدة القديمة انطلقت صيحاتهما.. سريران أحدهما فوق الآخر، وفي زاوية الغرفة أحضرت نسخة أخرى من أكثر الألعاب التي يحبانها..

ضمتهما إليها وتصيح كأنها في عمرهما:

ـ سنحيا هنا قريبًا..

قضينا يومًا رائعًا، وفي طريق عودتنا سمعتها تقول لهما:

ـ لن نخبر ماما.. هي مفاجأة نعلنها لها في الوقت المناسب!!

***

سألتني أمي ذات يوم في أي شيء أنفق راتبي، تلعثمت كثيرًا وقلت:

ـ أشتري شهادات باسم ابنتي، وأخطط لشراء سيارة لوديدة.. تعلمين أنها من تتكفل بكل مشاوير الأولاد!!

أرخت رأسها لحظات كأنها تفكر، وأدرت وجهي عنها كأني أهرب..

أكذب، لكن ليس فقط خوفًا، بل يأسًا من أن تفهم أو ترضخ..

أكذب لأني أظن الأمور بخير، وما زالت كذلك، فلم نتعجل الانفجارات؟! أحمق من يظن تأخير المواجهة مكسبًا..

كلما تأخرت زاد حجم الخسارة وكبر حجم الفاجعة!!

خسرت فاطمة القضية..

بالأوراق والمستندات مات أبوها لا يملك شيئًا..

مالكة المال أقامته على مالها أجيرًا أنفق قبل الموت أجره..

حادثتني فاطمة يومها على الهاتف وصاحت:

- يا شقيقي هل أنت سعيد؟ أنت وأمك تتاجران في حرام، وتحرمانني وولدي ما أحلّه الله..

كانت تبكي، وكنت أبكي وهي لا تعلم..

قبل أن أجيبها أخبرتني أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، وسيعاقب الله شيطان العائلة عقابًا كبيرًا!!

***

في ساحة مسجد «سنقر» جلست مساء ذاك اليوم أصلي وأدعو الله أن يرشدني إلى الصواب..

لماذا تهفو صدورنا إلى شيوخ المساجد؟ لماذا نظن أنهم يعلمون

أكثر؟

توجهت إلى أحدهم، قصصت عليه قصتي، وسألته:

- هل أترك أمي؟! هل حقًّا أسرقها حين لا أخبرها بأني أنفق أجري في إعداد مسكن مستقل؟!

هل خروجي من البيت عقوق لها؟ أتراني مسئولًا عن موقفها من شقيقتي؟

«هل أنا أيها الشيخ حقًّا شيطان وأخرس»؟!!

استمع الشيخ في هدوء، ثم قال:

ـ أيها الشاب أمك خائفة.. لا تريد أن تخلو حياتها أو بيتها منك، فلا تفجعها فيك..

أختك عاصية.. إن كان أبوك قد ارتضى أن يموت فقيرًا فالمال إذن كله لأمك..

نظر إلى عيني وأكمل:

ـ «أمك عجوز.. ستموت ويصبح لك ولزوجتك البيت كله.. إن تركتها بقيت حياتك بأكملها نادمًا باكيًا على رحيلها وهي عليك غاضبة»..

نهضت من أمامه وأخذت طريقي إلى البيت..

الشيخ مسكين!! الشيخ لا يعلم..

قد يكون أكثر دراية مني بالأحكام والفقه، لكنه لا يعلم..

ليس الحل أبدًا أن أنتظر موت أمي ويصبح موتها حلمي..

فاطمة أخطأت الوسيلة لكنها ليست عَاقّة..

أمي طيبة لكنها مستبدة.. أنا لست شيطانًا، وإن كنت لا يجب أبدًا أن أحيا وأموت أخرس..

الخرس وحده مضيعة الإنسان!!

دخلت بيتنا ذاك المساء في موعد العشاء..

نام الطفلان، وأمي كعادتها أنهت صلاتها، ووديدة تعد الطعام..

نظرت إلى المرأتين..

إحداهما ترى الحق في أن أتبعها، والأخرى تراه في الخروج عنها..

أرخيت رأسي وقلت:

ـ أمي.. تعلمين كم أحبك، لكن جزءًا كبيرًا من الحب صدق القول..

بعينيها القويتين نظرت إلى وديدة كأنها تريد أن تفهم إن كان اتفاق بيننا دار أو يدور..

أكملت في هدوء أخبرها عن بيت وديدة الذي أعددناه.. أخبرتها عن فاطمة التي تراني شيطانًا.. عن ولدها وابنتي..

في نهاية الأمر أخبرتها أني سأصطحب وديدة وصفاء في نهاية الشهر إلى بيتنا.. أخبرتها أني سأبحث عن عمل، وإن كان صبيًا في عطارة مجاورة..

ترقرقت في صوتي دمعة مختتمًا كلماتي:

ـ والله لا أعصاكِ، لكن.. أرجوك معاونتي على برك.. لا تفرقينا يا أمي.. ورحمة أبي وأبيك.. دعينا نخرج وأنت راضية، ولا تتركي ما وصلنا إليه في عطارة المهاجر ينهار!!

لا تحرمينا حق التجربة..

لا تقيمي بينك وبين أبنائك سدًا لا يمكن تجاوزه.. نريد رضاكِ.. نحبك.. حاولي أن تحبينا بطريقة أخرى..

ساعدينا يا أمي قبل أن نفقد صوابنا ويصبح كل منا في طريق!!

وجه وديدة كان في لون أوراق الخريف..

أنفاسها محبوسة، أكاد أسمع نبضات قلبها..

أمي ما زالت عيناها مرتخيتين، تسمع وأنا كالأطفال أبكي من بين حروفي..

حين سكت صوتي وبعد أن غابت دمعاتي، رفعت سيدة رأسها ودقت بقبضها على الطاولة، ثم نهضت تقول:

ـ لن يغلق بيت العطار.. لن تُطفأ مصابيح غرفة واحدة تلو الأخرى..

اتجهت نحو غرفتها واستدارت تقف قائلة:

ـ خاب فيك الأمل يا رجلي..

حين اتجهت إلى غرفتها ركضت وديدة خلفها تقول:

- العشاء يا أمي!!

ابتسمت الكبيرة ساخرة وقالت:

- فلتأكلاه وحدكما.. أليس هذا ما تريدين؟!

***

في الصباح وقبل خروجنا إلى العطارة، بل وقبل خروج الطفلين إلى المدرسة، خرجت أمي من غرفتها وصاحت تنادينا..

وقفنا أمامها، وكلانا في رأسه ألف فكرة..

في حزم قالت:

- لن تذهب إلى العطارة لمدة أسبوع.. في غرفة الضيوف نبني حائطًا له باب.. سيصبح الجزء المقتطع غرفتي.. صفاء والطيب ينتقلان إلى غرفتي..

في تهكم أكملت:

- أحقق لكما «الخصوصية» التي تعلمت الحديث عنها من المدارس التي أرسلتك إليها..

كأنها تبتلع خنجرًا ابتلعت ريقها وأكملت:

- أخصص مبلغًا شهريًا تحوله إلى شقيقتك.. ليس حقًّا لها، فالقضاء قال كلمته، إحسان مني، والأقربون أولى بالمعروف..

هذا عرضي، إن قبلت نكمل حياتنا، وإن رفضت لا تقف على بابي، أو باب عطارتي، أو قبري حين أموت!!

***

يا رسول العدل بعض العدل ظلم بيّن!!

قبلت العرض؛ فالخيارات الأخرى فيها شبهة عقوق، فيها بؤس وضياع.. حتى فاطمة قبلت النفحة الشهرية..

جاءت في أول زيارة لها تزورنا بولدها الصغير..

حددت موعدًا وطلبت أمي أيامًا للتفكير..

حين أعلنت موافقتها جاءت زائرة غريبة، قبلت يد أمي، وربتت على رأس أخيها الصغير وابنتي..

ضممتها إلى صدر الشيطان الأخرس كأني أحاول أن أحيي ما مات فينا وبيننا، لكن بعض المشاعر لا يحيا مرتين!! خاصة تلك التي كان سلاح قتلها المال!!

تحدثت في هدوء عن زيت المهاجر للشعر، وكيف ذاع صيته، ثم سألت في تهكم ناظرة إلى أم عيني:

- يحقق أرباحًا كبيرة؟!

كنت أضع ولدها على فخذي أمشط شعره في حنان، وقلت:

- نعم يا فاطمة.. الجميل في الموضوع أن كل من حاولوا تقليده لم يستطيعوا...

قاطعتني أمي قائلة:

ـ لأني وحدي من أعرف مقادير التوليفة.. هو مجهودي وحدي..

تناولنا طعام العشاء كالغرباء، رجوتها أن تعود لزيارتنا أو تسمح لي بدعوتها إلى الخروج معي ووديدة في إحدى عطلات الأسبوع، لكنها اعتذرت..

حين كانت في طريقها إلى الباب سألتها أمي إن كانت تحتاج نقودًا أكثر مما ترسله لها كل شهر..

هزت رأسها بالرفض ومضت.. ركضت خلف فاطمة، على درج البيت ضممتها إلى صدري من جديد..

هممت أخبرها أني ما زلت شقيقها.. أني أيضًا أعاني من أمي، لكن تبقى أمنا..

«أحاول الحفاظ على شعرة معاوية.. كيف أتركها؟ كيف أنازعها من أجل مال؟! أنا حائر، لكن لا أريد أن أفقدك أنت أيضًا!! أرجوكِ»..

ابتعدت عن صدري، لأرى في عينيها شيئًا كالدموع.. كأنها تكاد تسقط، بلهفة الأعوام والدم والطعام قلت:

ـ فاطمة.. هل أنتِ بخير؟!

انحنت تحمل ولدها وقالت:

ـ الفجيعة الكبيرة أنه أصبح من السهل أن أصرخ لسكان الأرض، وأخبرهم إجابة السؤال.. إلا أنتم!!

***

«إلا أنتـــم»!!

أي إذلال وقهر وألم يسكن قلب من يقولها؟! بعد أن كان سكان الأرض جميعهم الاستثناء في حضورنا، أصبحنا الاستثناء في الأمان والحب!!

قاتل الله التعود.. نألف أوجاعنا وأخطاءنا وفراق من نحب.. نألف سخطنا عليهم، وننبذهم حتى يصبح مجرد لقائهم صدفة.. شهقة تعجب ورفض!!

عدنا نجمع أرباحنا.. أغلقت وديدة باب بيتها الذي كان حلمها، قامت بطلاء غرفة أمي ووضع سريرين يفصل بينهما «كومود» صغير للطفل، مع خزانة ملابس، وتسريحة صغيرة..

أمي انتقلت إلى الغرفة الجديدة المقتطعة من غرفة الضيوف، كأنها أعلنت تخليها عن الجزء الخلفي وانعزالها عنه.. ليحدث فيه ما يحدث، ويدور فيه ما يدور مع دورة الأيام التي لا تُشفق ولا ترحم!!

وديدة أم رائعة حانية، تمنح ابنيها دون حدود، كأنها تجد نفسها في ذلك، كنتُ أظنني أبًا طيبًا يمنح مالًا وجهدًا، لكن دومًا بينه وبين طفليه حجاب..

أخرج بهما قرب الأعياد لشراء الملابس الجديدة والحلوى.. أبادلهما الأحاديث على مائدة الطعام وفي طريق المدرسة..

لا أُعنف أحدًا، لا أذكر أني يومًا تعديت بالضرب أو الإيذاء على أحدهما..

أمي ما عادت أمًّا لطفلها، بل هي كبيرة البيت التي إن خرجت إلى سكانه سكتوا خوفًا واحترامًا..

جميعنا نرهبها، ووحدي أكثرهم حبًّا وإشفاقًا عليها..

بداخل وديدة منها غصة كبيرة، أظنها دون وعي أصبحت في صدر الطفلين، وإن لم يكن سببها عندهما واضحًا!!

لم أرَ أمي يومًا تعنف الطيب، لكن أيضًا لم أرَه يومًا يتسلل إلى غرفتها للنوم بجوارها أو التدلل عليها..

شقيقي ليس ملتصقًا بأحد سوى صفاء..

وديدة دومًا تفخر بهذا الحب الشديد الذي يتبادله أحدهما مع الآخر.. كثيرًا ما سمعتها تشكر الله وترجوه أن يبقى ما بينهما ما بقي العمر..

لا شيء يبقى يا وديدة.. أما كنت أنا وفاطمة لا نفترق، وإذا بي أصبح شيطانًا في عينيها أخرس؟

كلما بكت رددت عليها القصة، وتعيد على رأسي أن ما حدث كان سببه صلف أمي..

«هل تذكر تلك العاصفة التي ضربت البلاد؟!».

حين دخلت للاطمئنان عليهما وجدته يحتضنها لتنام بين ذراعيه، وهل تذكر حين رسب في مادة العلوم كيف استذكرت صفاء له، وتقوم بعمل فروضه المدرسية؟ أمك أفسدت ما بينك وبين فاطمة، لكن أولادي ما بينهما شيء آخر!!

آه يا وديدة..

أشياء أخرى لا يفسدها شيء، وإن كان قسوة وظلم الأمهات!! (رغم هذا قصص كبيرة).. لا ذكريات عميقة.. لا شيء يُذكر سوى سعادة زائفة وهدوء ظنناه استقرارًا..

أصبحنا أثرياء.. حقًا أثرياء.. لدينا مستوردون من بلاد الخليج، يطلبون بعضًا من توابلنا وزيوتنا، خاصة زيت «المهاجر» للشعر..

تجرأت وديدة يومًا وأخبرت أمي برغبتها في انتقالنا جميعًا إلى بيت أكبر..

تحدثت عن مناطق أخرى فيها شوارع واسعة نزورها، وأخرى تراها على شاشة التلفاز الذي أدمنت الجلوس أمامه..

«البيت صغير يا أمي.. الأولاد يكبرون، غدًا يزورهم أصدقاؤهم.. نحن لا نسمع سوى صوت الباعة، لا نرى سوى ملابس الجيران على الأحبال»..

ختمت كلمتها تؤكد «ننتقل جميعًا إلى مكان أكبر وأفضل»!!

لا عضلة واحدة في وجه أمي تحركت عن مكانها، في سكون قالت:

ـ بيت أبيك أصغر وفي حارة ضيقة.. بيتي هذا لن يُغلق حتى أموت، بعدها اخرجوا إلى الشوارع الواسعة، افتحوا نوافذكم على الأشجار وصوت العصافير، وإن أردتم الخروج الآن انطلقوا..

قبل أن تسترد وديدة أنفاسها قالت أمي:

ـ هي المرة الأخيرة التي أسمعك فيها تخوضين في هذا الأمر، وانتظري يا وديدة.. انتظري مع فاطمة، انتظرا موتي، لعله قريب!!

ما تنتظره أيها القاضي هو دومًا آخر ما يأتيك!!

نعم في أعماق وديدة شيء كان ينتظر موتها، وفي أعماقي شيء بقي ينتظر صوابها..

لكن تحدث فقط الأشياء التي ما ظنناها يومًا تحدث أو تكون!!

***

أنجبت فاطمة طفلًا آخر.. حين أخبرني زوجها عن اسمه شعرت بقلبي ينخلع من بين أضلعي..

منحها الهاتف، وأظنها شعرت بدمع في صوتي، سألتها:

ـ هل سامحتِ؟!

والله شعرت أني أرى دمعاتها حين قالت:

ـ أحبك وأحبها، ربما لهذا الجرح عميق.. أفتقدكما، لكن لا أرى من الظلم أبدًا مخرجًا!!

أخبرتها أن أمي مسكينة.. أخبرتها أن هناك قصة كبيرة في حياتها لا تعرفها، لو أنها فقط عرفتها لربما عذرت وصفحت..

قاطعتني فاطمة تقول:

- هل تظنك بكلماتك تجعل الأمور أفضل؟

تعرف عن أمي قصة أنا لا أعرفها.. تدير مالها ومال أبي، غير مسموح لي بشيء سوى نفحة شهرية.. تأتمنك وتخوّنني.. أنت تزيد الجرح اتساعًا..

حين أنهينا كلماتنا ذهبت إلى أمي..

قبلت رأسها وكفيها، باركت لها حفيدها الجديد قائلًا:

- فاطمة أنجبت.. أعيديها إلينا.. افتحي لها قلبك.. دعيها يا أمي تعبر سدودًا أقمناها، ولا حاجة لنا بها.. تشتاقين إليها ضعف شوقي..

في ألم أجابتني أن فاطمة لا تشتاق..

من يطلب المال ويرفع القضايا لا يعرف الحب..

لم أجب.. ما عاد للكلمات مكان.. فقط نظرت إليها وقلت:

- أسمت وليدها رجائي!!

***

الأيام تركض، وكلما أغمضنا أعيننا عن غرفنا الداخلية يزداد سعير ركضها لنزداد تيهًا وضلالًا..

حين أصبح الولدان في المرحلة الإعدادية..

عادت فاطمة إلى مصر بعد سنوات.. خابرتني بعد أن أثثت بيتًا جديدًا، وألحقت ولديها بمدرسة دولية.. قبل أن تزورنا طلبت مني الذهاب إليها..

لم أخبر وديدة أو أمي بحضورها.. اشتريت هدايا كثيرة وثمينة للولدين وذهبت..

شقة صغيرة أنيقة في أحد منتجعات التجمع الخامس..

رأيت الشوارع المتسعة التي تطل عليها البيوت..

سمعت صوت العصافير والأشجار التي تحدثت عنها وديدة..

وقفت بسيارتي الجديدة دون عناء، نظرت إلى وجوه رجال الأمن في ذهول..

وديدة على حق.. لماذا لا نسكن في مكان كهذا؟ حتى أمي ستحب أن تفعل..

فتحت لي باب بيتها، ومن خلف الصناديق الكبيرة التي حملتها على ذراعيّ رأيت وجهها..

أطلت النظر إليها واقفًا على بابها..

أختي.. رفيقة طفولتي وغرفتي وقصصي وأسراري..

من فرّقنا؟ زوجها أم عناد أمي أم تراه ضعفنا وضعف بصيرتنا؟

في حنان قلت:

ـ اشتقت لك كثيرًا..

أفسحت لي الطريق، بعد أن وضعت الصناديق على طاولة مائدتهم الأنيقة أخذتها إلى صدري، شعرت بها تلتصق به، وزادني ذاك الشعور

حبًا وحنانًا..

سمعتها تقول:

ـ آه يا رجائي.. من فعل بنا هذا؟!

قبل أن أجيبها أطل ولدها الكبير.. ملامحه تبدلت، وكأني أرى أحد أبطال الأفلام الأجنبية رغم أنه من أبوين مصريين وُلِد..

مد يده يصافحني، نظرت إلى أمه كأني أستأذنها، قالت له كلمات بالألمانية، قبل أن أفهم أطل الصغير.. أطل من هدم باسمه من عقلي أسوارًا وسدودًا..

اتجهت إليه وضممته إلى صدري.. الوصول إلى الصغار أحيانًا يكون أيسر..

استسلم لعناقي، قلت ولا أعلم إن كان يفهم:

ـ اسمك كاسمي..

فتح الولدان الهدايا، الهدايا دومًا تختصر السبل إلى القلوب..

في حزم طلبت منهما فاطمة التوجه إلى الداخل..

لم يعترض أحد منهما.. ظننتها عني تصرفهما، عادا بعد لحظات بصحون وأكواب..

في إشفاق سألتها إن كان لديها خادمة، ضحكت تخبرني أن كل شيء اختلف..

علمت أن فؤاد ليس معها، جاءت لأنها شعرت أن ولدها أصبح بعيدًا

عن الدين..

سألتها:

ـ ألا يصلي؟!

ابتسمت في مرارة تقول:

ـ ليست الصلاة ما أعادتني.. يتشكك في وجود الله..

كأنها صعقتني بسلك كهربي عارٍ..

استغفرت الله كثيرًا، في ثبات أخبرتني أنه سيعود.. كما عادت وعدت إليها، إلى الله دومًا نعود..

تحدثنا كثيرًا وطويلًا.. بدت لي أكثر هدوءًا وتعقلًا..

غيرتها الغربة والأمومة..

كلاهما معلم كبير!!

سألتها لماذا ألحقتهما بمدارس دولية إذن؟!

قلت:

ـ يا فاطمة مدارسنا فيها قرآن وشيوخ، مدارسنا أفضل.. إن كنتِ تريدين لغة فلقد اكتسبوها..

أخبرتني أنه من الصعب أن تنتقل بهما إلى مدارس عربية، الصدمة ستصبح كبيرة، وقد تؤدي إلى رفض أو انتكاسة..

قالت:

- رجائي.. مناهجنا رثة.. مدارسنا ما زالت لا تهتم باحتياجات أو محتوى.. هل نسيت؟!

تعلم الولدان هناك بطريقة مختلفة تمامًا..

تعلما كيف يفكران ويفهمان، وتعلمنا كيف نحفظ ما لا نفهم..

يتعلمان المستقبل، بينما كل ما نتعلمه هو التاريخ والبكاء عليه..

كأنها أرادت أن أفهم أكثر فقالت:

- رجائي الصغير كان يدرس ثقافة جنسية..

كان لديه دروس عن...

قاطعتها في ذهول:

- ماذا؟ رجائي.. فُجر.. لهذا شاع فيهم الشذوذ و...

قاطعتني تقول:

- لكل ما شاع وانتشر هنا وهناك يجب أن يحصنوهم حتى يفهموا الفطرة، ولا يخدعهم أحد..

كنت مذهولًا، لكنها قالت في مرارة:

- هل تظن بلادك تخلو من هذه الأمور؟

آلاف في أوروبا تركوا أوطانهم ليتم تقبل شذوذهم واختلافهم.. المناقشة والوضوح والتعليم هو الحل.. العلم نور.. نور يا رجائي.. نور ينير ما نحاول دومًا إخفاءه وإنكاره..

فقط قصة الإلحاد تخيفني.. وحدها أعادتني، إن استقام أمره أعود بهما..

تحادثنا طويلًا وكثيرًا..

أمومتها جعلتها أكثر مرونة وليونة..

اتفقنا أن تزور أمي.. أيضًا طلبت منها أن تأخذني إلى إدارة المنتجع..

أخبرتها أني سأشتري أربع شقق.. لأبنائها وأبنائي، ما زالوا يقبلون التقسيط..

إن كنت لا أستطيع أن أحيا بهم هنا، فمن حقهم أن يجدوا سكنًا كهذا حين يكبرون..

أرخت شقيقتي عينيها في ألم قائلة:

ـ لستُ غاضبة، هل تفهم ما أشعر به؟

تستطيع أن تشتري أربعة بيوت، ولا أستطيع أن أطلب حتى معرفة ما نملك!!

هممت بأن أخبرها بكل شيء، لكنها وضعت يدها على كفي قائلة:

ـ نحن أيضًا أصبحنا أثرياء بفضل الله.. فلنشكر الله بشكل أفضل!! وليس أفضل من الرضا والقبول.. أنا قبلت كل شيء، فساعدني!!

كيف أصبحت بهذا الهدوء؟ كيف أشعر أني أستعيدها وسعيد بوجودها؟

هل هي على خلاف مع زوجها؟!

لكن حتى إن كان.. ما فعله معها يكفي لأن أحترمه، وما تخفيه عني يكفي لأن أحترمها..

عودتها كانت رسالة، لقاءاتنا رسالة.. كل كلمة ذكرتها وقالتها رسول ونذير، إن صُدِّقت الرسل وأبصرت القلوب، ما عرف الله أي عباده المبصرين، ولا كان هناك جنات وسعيرا!

***

ظننا جميعًا أننا سعداء..

أمي تزورها ابنتها وأحفادها.. أنا وأختي نتحادث ونلتقي.. حتى وديدة هدأت، ما عادت تشكو من ضيق البيت وزيارات الأصدقاء.. أصبحت تدعو رفقاءهما إلى بيت أبيها.. حتى صديقاتها من الأمهات أصبحت تلقاهن هناك..

هدأت أكثر حين علمت بشرائي لأبنائنا بيوتًا في ذاك المنتجع..

الأيام حين تريد أن تغتالك تصور لك أنك الأذكى والأقوى والأهنأ..

بدا كل شيء هادئًا هانئًا.. فقط أسررت إلى زوجتي أن تلازم ولدينا إن جلسا مع أبناء فاطمة.. قلت لها بجهلي:

ـ تعلما في مدارسهما أشياء لا أريد لابنينا أن يعلما عنها شيئًا في هذا العمر..

هل تصدقين أنهم يعلمون رجائي الصغير دروسًا عن الجنس؟!

فؤاد كان يحضر مرة أو مرتين في العام، وتذهب فاطمة بأولادها إليه في عيد الميلاد المجيد، ثم تعود محملة بهدايا دومًا مختلفة..

تخبرني أنها جميعها ألعاب تستنفر فيهم التفكير والبحث..

شقيقتي نسيت أن عدونا الأكبر هو البحث والتفكير!!

***

يبدو أن النهاية حانت لا شك..

زارتني فاطمة بالأمس..

لم تسألني أسئلتها المعتادة، ولا حادثتني عن قلب أمي الممزق، أو عيون وديدة المشنوقة بأحبال الدم كزياراتها السابقة..

جلست على مقعد أمامي، تنظر إلى وجهي من خلف دمعها كأنها تملأ روحها من أنفاسي ووجهي..

أعلم أني ما زلت شابًا.. في منتصف الأربعينيات، في قمة نجاحي وثرائي، أيّا كان شعوري باستحقاقي للموت، إلا أن الاستسلام لحضوره موت أكبر..

بكت، وعلمت أنها تودعني..

تمنيت لو أسألها متى لكن جَبُنت..

حاولت أن أوصيها بأمي.. ستصبح سيدة الجبروت والقوة ثكلى، أو ربما أصبحت..

نظرت إلى وجه فاطمة الرقيق، ابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة..

كل المال سيئول إليها.. فهل تراها تُحسن التصرف؟!

لو أني فقط أستطيع الوصول إليها والنظر إلى عينيها..

لو أني فقط أستطيع تقبيل قدميها، وأطلب منها أن تغفر لي ما صنعته فيها وفي نفسي..

حين تؤذي نفسك.. حين تتألم أو تخطئ، أو حتى تفشل، ما تشعر به من ألم وانكسار لا يوازي شعرة من خناجر الألم التي وضعتها في صدر أمك..

ربما لهذا ترحل الأمهات رحمة من الله قبل بلوغ الأبناء مراحل الشقاء والإدراك..

حاولت.. حاولت كثيرًا أن أحرك لساني، أن أرجو فاطمة إبلاغها ندمي وحزني، لكن لا كلمة غادرت جوفي إلا كلمة واحدة..

كنت وكانت أوصالي ترتعش.. يقيني باقتراب اللحظة حولني إلى أرنب صغير في صحراء ماطرة سوداء..

أجهشت في بكاء حاد ووضعت وجهي بين كفي، وقلت:

- صفاء.. صفاء يا فاطمة!!

***

صفاء وحيدتي.. ابنتي التي يومًا ما تمنيت مولدها..

دفعت وديدة فيها جزءًا من جسدها، بل أغلى ما في جوف النساء..

بقيتُ العمر لا أعرف كيف أقترب منها..

مشاعري نحوها دومًا تتخبط.. خوفي من أن أظهر لها حبي فأُصبح لعبة في يدها كالعطار رحمه الله، وأسقط إن غادرتني أو عَشِقت رجلًا آخر..

صغيرتي التي تركت أمرها لوديدة حين عجزت عن موازنة الأمور..

قليلًا ما احتضنتها، لكن كثيرًا ما كنت أتسلل إلى غرفتها وأرقب وجهها النائم في شوق..

حين كنت أجدها نائمة إلى جوار الطيب في فراشه، كنت دومًا أتمنى لو أنها جاءت تحتمي بصدري أنا وذراعيّ أنا..

تجاهلت طويلًا نظراتها التي ترمقني بها من حين إلى آخر، والتي إن رأيتها تدِرْ بعدها وجهها أو ترخِ عينيها كأنها لم تكن..

مجتهدة في مدرستها تمامًا كما كانت فاطمة، تساعد الطيب، تكتب له معظم فروضه المدرسية، حتى أصبحت وديدة كل صباح ومساء تتحدث عن نجاحها في جعلهما روحًا في جسدين!!

لا صداقات لهما سوى قليل من الفتيات، ربما صبي أو اثنين ظهرا في فترات متقطعة..

لم يستوقفنا الأمر بل وجدناه راحة كبيرة..

وديدة لا تريد دخول أحد إلى البيت.. أمي أيضًا لا تحتمل..

ظننا ما يحدث نعمة.. لا قصص.. ولا مشاكل.. لا مقارنات ولا

مخاوف..

صفاء وعمها صديقان بل شقيقان.. حتى عند ظهور فاطمة ويوم اصطحبتهما معي إلى ابنيها لم يلتحما وربما خشينا أن يفعلا..

ابنا فاطمة يتحدثان الألمانية.. يذهبان إلى مدارس دولية.. يدرسان الجنس، ويتحدثان عن العنصرية، ويناقشان السياسة..

نريد أبناءنا بمعزل عن كل ما قد يجلب مشكلة أو يسبب جدالًا..

في مدرستهما يَدرسان السُّنة والقرآن..

لا أعلم كيف لم نقف أمام صمت الطيب، لكنه كان أسهل..

لا أعلم كيف لم نندهش لتعلق صفاء به، لكنه كان لنا أمانًا..

آه يا أمي.. آه يا وديدة..

ماذا يصنع بنا الجهل والهروب؟!

اقتربت النهاية أيها القاضي، وكل النهايات الفاجعة تأتي بغتة..

بلغنا السنة الدراسية النهائية..

شهادة الثانوية العامة.. الطيب يتعثر، وابنتي تجاهد معه بالعلم، وأمهما الصغيرة تجاهد بالمال..

جعلت من بيت أبيها «سنتر» تعليميًا خاصًّا لهما..

أفضل معلمي هذه المرحلة يذهبان لتدريسهما..

تطهو لهما أفضل ما تصنعه، تخصص وقتًا للصلاة ودعوات

الاستجابة..

وديدة تريد الطيب مهندسًا.. نملك أن نعلمه في إحدى جامعات الهندسة الخاصة، سيقبلون بدرجاته إن كانت منخفضة.. صفاء تصبح طبيبة، وأيضًا تلتحق بأفضل جامعات الطب ليصبح بإمكانها أن تنتقي زوجًا من وسط أفضل..

دومًا تردد كلماتها، وأمي تبتسم تخبرها أن الطيب إلى العطارة في النهاية يعود..

صفاء ترحب بأن تصبح طبيبة، بل أصبح الحلم يراود الطيب رغم صمته الدائم كأنه شعور بعجزه عن تحقيقه، لكن وديدة تقول:

ـ الله سيستجيب!!

اعذرني أيها الصديق إن اضطربت كلماتي وأفكاري، فمنذ عرفت أن الساعة اقتربت وأنا لا أنام..

لا أكتمك الخبر .. أنا خائف..

خائف من الموت.. من فراقهم.. من أن يأخذوني من زنزانتي إلى غرفة الإعدام ورسالتي إليك بعد لم تكتمل!!

خائف من لقاء الله.. ماذا أخبره وهو بكل شيء عليم؟

هل يغفر؟! لا أعلم، لكن يُثلج صدري أنه وحده العليم..

أنت تخشى أحكام من لا يعلمون.. من يفترضون فيك الكذب والمراوغة، نعم كذبت على حكام الأرض، لكن وحده من يعلم السر

وأخفى..

أنا أرتعد أيها القاضي.. جميع أوصالي ترتعد، ومع كل صوت صغير من نزيل مجاور أو زنزانة ملاصقة أشعر أنهم إلى لقائه يأخذونني..

احتملني، أريد أن أفرغ لك ما في جوفي قبل أن تفرغ من الجسد الحياة!!

***

هناك يوم ليس كالأيام.. هناك صباح أو مساء ليس كغيره من أيام الأعوام جميعها في حياة البشر جميعهم..

لحظة في حياة شخص، تتبدل بعدها الأقدار حين يولد فرح، أو..

أو فاجعة ما!!

كانت وديدة شاردة على مائدة العشاء، حين سألتها ما بها لم تقل حرفًا..

رفعت أمي حاجبها تقول في حزم تعلم أننا جميعًا نخشاه:

- وديدة! ماذا يحدث؟!

استدارت ثم عادت تقول:

ـ أين صفاء؟ أين الطيب؟!

أخبرتنا أنهما خلدا إلى النوم.. غدًا يوم المراجعة النهائية قبل بدء اختبارات الثانوية العامة..

نهضت بعد لحظات لم تأكل فيها شيئًا..

حين دخلنا إلى فراشنا ضممتها في حنان وسألتها، عن كل ما لم تستطع البوح به أمام أمي..

أخبرتني أن إحدى صديقاتها طلبت صفاء لولدها..

يدرس الطب في السنة النهائية.. أعرف عائلته جيدًا..

ابتسمت في سكون..

صفاء تتزوج؟!

تخرج من بيتنا إلى ذراعي رجل..

مؤلم هو الشعور.. أغمضت عيني في خجل وتذكرت العطار..

الآن أعرف شعوره حين فاتحته فطوم في زواجها..

أخذت نفسًا عميقًا من صدري راجيًا أن تُرجئ الأمر برمته إلى ما بعد انتهاء الاختبارات..

تنهدت وديدة وسكتت لحظة، لكنها لم تستطع ألا تقول..

سمعتها تهمس:

ـ أخبرت صفاء..

قبل أن ألوم أو أؤنب كعادة كل الرجال أكملت سريعًا:

ـ لم يعجبني أبدًا ما حدث..

ارتعدت وأخذت تردد في ذهول:

ـ أظنني جننت يا رجائي.. جننت..

هل صفاء على علاقة بالشاب الذي جاءت أمه تطلبها؟

هل هي حبلى؟!

صرخت فيها:

ـ وديدة.. أصدقيني القول!!

ألا ليتها ما صدقتني إياه أبدًا..

***

كيف مرت علينا ساعات الليل تلك؟ بل كيف احتملنا الليل واستطاعت سماؤه أن تعبر بنا الساعات حتى أشرقت الشمس؟

ارتديت ملابسي، طلبت منها أن تلزم فراشها..

خرجت إلى أسرتي أخبرهم أن وديدة محمومة..

حين همت صفاء بالدخول إليها صحت:

ـ لديكما امتحانات.. لا نريد أن يمرض أحدكما..

اذهبا إلى البيت.. راجعا دروسكما وعودا في المساء، ولنرَ كيف تكون.. سأبقى معها أراعيها..

خرجت سيدة إلى العطارة، غادر الطفلان، ودخلت إليها..

كانت في فراشها تبكي، واقتربت منها..

أمسكت بكلتا كتفيها في قوة وقلت:

- إن تبعتِني تكوني طالقًا!!

تسللت إلى مطبخ البيت، وضعت سكينًا في ثنايا جلباب بيتي الأبيض، أسرعت إلى بيت «وديدة»..

لم أرَ أحدًا في طريقي.. كل العالم حولي ضباب أسود، لا أعرف كيف أو متى وصلت..

- صفاء بكت تخبرني أنها لن تتزوج.. ركضت إلى غرفتها.. إلى الطيب يا رجائي.. صنعت لهما كوبي ليمون..

اتجهت إلى الغرفة لأخبرها أن تنسى قصة الزواج.. ما زالت حقًّا صغيرة، أمامها أعوام طويلة في دراسة الطب..

وقفت على باب الغرفة أحاول ترتيب كلماتي.. سمعتها تبكي.. سقط الشال عن كتفي فانحنيت ألتقطه وسمعتها تقول..

كنت على باب حارة البيت أقف، سَمِعتُني أصرخ صرخة سوداء ممزقة..

حتى كلمات وديدة لا أستطيع أن أتذكرها..

جُنَّت وديدة.. نعم هي أيضًا تقسم أنها جُنت..

اقترب مني شاب من سكان الحارة يقول:

- عم رجائي.. هل أنت بخير؟!

صدقني أيها القاضي لا أعلم بماذا أجبته.. لا أذكر سوى أني كوديدة

وقفت خلف باب البيت أسترق السمع..

لا شيء.. لا صوت..

هدوء كصوت زحف الجيوش، وضجيج كطبول الحروب تُقرع في صدري..

عدت أضع أذنيّ على الباب.. وضعت المفتاح في ثقب الباب مثلما يزرعون لغمًا أو يعبرون فوقه..

وديدة مجنونة.. إن كان هناك شيء لوضعا المفتاح في الباب.. وديدة مجنونة.. تقول إنها سمعت صفاء تخبره أنها به هائمة فكيف تتزوج؟!

وقفت في سكون أنظر حولي..

مجنونة وديدة، ولكن كيف لا أجن أنا أيضًا؟!

ليسا في صالة البيت..

الغرفة مفتوحة..

كل شيء معد لترى فجيعتك..

إن حان موعد الفجيعة فكل شيء يُيسر لك حدوثها..

شفتاها بين شفتيه على فراش أعددناه أنا وأمها لنا..

وديدة ليست مجنونة.. انطلقت كصاروخ، والخطوات التي تفصلني عنهما قليلة..

انتفض كلاهما واقفًا..

سكيني في يدي، رأيته يبتعد بها عني..

صرخت:

ـ أيها الكافر.. أيها اللعين..

أودعت السكين في صدره.. والله لا أذكر سوى أني شعرت به في قلبي أنا، صاحت صفاء تقول:

ـ بابا..

سقط الصبي على الفراش ورأيت وجهه.

كان يبكي في سكون..

استدرت إليها.. ظهرها ملتصق بخزانة الملابس، دموعها تنهمر كطوفان غضب..

عدت أنظر إليه.. أريد أن أستل السكين من صدره لأغمده في صدرها..

كانت تهذي وكان يحتضر..

قالت أشياء لم أفهمها:

ـ أنا من بدأت.. منذ كنت في الخامسة، لا ذنب له..

تهذي وتتحدث وكل ما أفكر فيه كيف أقتلها..

قتل النساء أسهل..

أخنقها بيدي..

رفعت يديّ أنظر إليها.. رأيت بقعًا من الدم كثيرة على ثوبي..

صحت أبكي:

ـ لماذا؟ لماذا؟!

أصدقك القول.. والله لم أنوِ قتله.. لماذا حملت السكين إذن؟ لا أعلم..

ما أعلمه جيدًا أني فعلتها، لكن لم أستطع أبدًا أن أمس ابنتي..

في وقت الشدة لا أحد كولدك..

كانت أنفاسه ضعيفة، لكن عينيه ما زالتا مفتوحتين، صفاء أنفاسها عالية، لكن عينيها مغلقتان، وأنا كأجدب ضائع أنظر إليهما معًا ولا أعلم أين نحن..

أفقنا جميعًا على صيحة..

من خلف ضباب الدم والموت رأيتها تدخل من باب البيت صائحة:

ـ ولدي..

أخذته على صدرها وصاحت:

ـ ماذا فعلت بولدي يا رجائي؟

كان صوتها عاليًا، وباب البيت خلفنا مفتوحًا..

أسرعت إلى ابنتي أجذبها من ذراعيها..

ألقيت بها خارج الباب وصحت:

ـ اذهبي إلى عمتك.. تقتلي أمك وأمي إن بكيتِ أو ذكرت كلمة.. هل تفهمين؟

رأيتها تركض على سلالم البيت كأنها تريد الهرب من كل شيء.. وسمعت صوت وديدة يعلو..

عدت إلى الغرفة، سمعت روحه تغادر جسده.. سمعت ورأيت كيف تخرج الروح مع الكلمات.

كان يقول:

ـ سامحيني يا ماما..

هممت بالانقضاض عليه من جديد..

«ماما» كيف يقولها؟ تحررت روحه بعد أن قال:

ـ صفاء عذراء!!

***

نسمع عن زنى المحارم ونغمض أعيننا لاعنين متقززين..

نظنها بيوتًا فاسدة ليست كبيوتنا..

نسمع عن القتل، ونظنه وحشية نحن أكبر منها..

نسمع ونظن، ولا نعلم أن الفواجع لا تعلم من تصيب..

ما زالت عيناه تطاردانني..

كيف نسيت أنه شقيقي؟ كيف نسي أنه عمها؟ هل يغفر له ولها أنها عذراء؟!

لا أعلم، لا أحد يعلم..

رحل الصبي وتعلم أنت بقية القصة..

سألوني واستجوبوني، لم أقل كلمة..

وديدة وحدها أدركت ما يدور..

إن قالت أو تحدثت هي أو صفاء ضاع كل شيء..

تموت سيدة ونوصم بالعار ما بقينا، وبعد رحيلنا..

هل فعلها أبي بخالتي حقًّا؛ ألهذا يعاقبنا الله؟!

حاشا لله أن يفعل.. ألم يقل في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؟

إذن هي القصص تتكرر وتدور بين جيل وآخر ..

لا أعلم..

ما أعلمه أني أمامك في قفص الاتهام، اعترفت أنه قتل مع سبق الإصرار والترصد..

أكره أخي وأغار منه.. خططت لقتله أعوامًا طويلة..

أذكر أن أحد محققي القضية لطمني على وجهي، صائحًا أن هناك سِرًّا خلف ذبحي لشقيقي..

لا أسرار سيدي المحقق.. هو الإنسان!!

سقط شال وديدة في تلك اللحظة لتسمع.. لو أنها فتحت الباب ما سمعت شيئًا..

لو أنها صرخت بعد ما سمعته لكذبوها وكذبناها، وما أصبحت قاتلًا، ولا أصبحت أمي ثكلى..

لكنها الخطايا.. عمرها دومًا قصير..

قدره أن يموت، وقدري أن أقتله..

قدر أمي أن تفقد ولديها، كما ماتت يومًا شقيقتها..

قدر زوجتي وابنتي أن تبقيا سجينتي الصمت والعار..

هل تراهما يتركان البلاد كما فعل العطار يومًا؟!

حين يربطون حول عنقي حبل المشنقة، هل أجده في انتظاري مع خالتي وأبي؟!

لا أعلم.. لا أحد أبدًا عاد يومًا ليخبرنا ماذا يحدث، ومن ينتظر القاتل والضحايا!!

ما أعلمه أيها القاضي أنه إن حدثت خطيئة كبيرة يومًا ابحث في الجذور.. انبش في التاريخ، بعثر قبور الماضي..

أظنهم قادمين!!

أخبر فاطمة بالقصة.. أخبرها أو ضع أوراقي بين يديها..

وحدها تستحق أن تعرف..

وحدها تستحق أن تُنذر..

وحدها من فتحت وتمردت على الأبواب الخلفية..

حسنًا سيادة القاضي:

أسمع وقع خطواتهم بوضوح..

ما عدت خائفًا..

ما عدت أرتجف..

أستودعك عند الله واستودعتك قصتي..

أجتمع وإياك يوم الفصل، ولنرَ إن كنت ممن يُسأل أم تراك معي في النار تُخَلّد!!

تمت

شكر خاص جدًّا

شكرًا لصديقي القاضي الذي أطلعني على ملف القضية..

شكرًا كبيرًا لأنه جلس بعدها يكتب توصيات، منها أهمية تدريس الثقافة الجنسية، ثم رفعها إلى مسئولي التربية والتعليم..